سمير عبده

السريانية ـ العربية

الجذور والامتداد



دار علاء الدين منشورات دار علاء الدين

السريانية ـــ العربية

الجذور والامتداد

سمير عبده

السريانية - العربية
الجذور والامتداد

منشورات دار علاء الدين

- السريانية - العربية
  الجذور والامتداد
- تأليف: سمير عبده
- الطبعة الثانية ٢٠٠٢
- عدد النسخ ٢٠٠٠ نسخة

- التدقيق اللغوي: صالح جادالله شقير
- صورة الغلاف: كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨م
- يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

مقدمة

يتعاظم شعور الإنسان، كلما تقدم بالعمر، بمدى تقصيره في دراسة الماضي واتخاذ العبر منه، واستجلاء ما خفي من أحداثه، خاصة إذا كان الماضي ماضيه، والأرض التي يفترشها هي أرضه.

هكذا كان الحال معي حين كتبت كتابي الأول (السريان: قديماً وحديثاً)، الصادر عام ١٩٩٧ فهو كتاب مكثف المادة وتعريفي المبتغى لمن بقي من سكان سورية الأولين، وكان الكتاب الثاني (السوريون والحضارة السريانية) عام ١٩٩٨ وهو الكتاب الذي يعطي هوية المواطن السوري القديم واستمراره إلى الآن، أما كتابنا الحالي (السريانية ـ العربية: الجذور والامتداد)، فهو يتناول تاريخنا الماضي وربطه بالحاضر، والدلالات التي تعطى لتسمية سورية وعلاقة ذلك بالسريان، ومساحة هذه البلاد التي تفوق وضعها الحالي إلى الضعف، ومدى تأثرنا وتأثر اللغة العربية باللغة السريانية الماثلة في معظم مفردات لغتنا المتداولة يومياً، دون أن نلحظ أصلها في الغالب، لندرة ما كتب في ذلك[*]. كذلك في أسماء القرى والمدن الكثيرة التي تعود في أصولها إلى السريانية، وكذلك في المقارنات التي تجمع بين الكلمات السريانية مع العربية وغيرها من اللغات التي تعود في أصولها إلى اللغة الأم (السامية).

---

[*] للتدليل على جهل وتجهيل ما يقال، يروي أسامة أنور عكاشة، كاتب السيناريو المصري المعروف، في مقال له عن (شبكات البغاء الأدبي) وبه يتناول تجبير كاتب السيناريو الأصلي عمله إلى غيره مقابل أجور رمزية، يندد بموجبه ممن أصبح يكتب السيناريو (ولو كانت معرفتهم بأصول كتابة الدراما لا تزيد عن معرفتهم بقواعد اللغة السريانية)، مجلة روز اليوسف ـ القاهرة ١٩٩٧/١/٢٠ ص٧٠و٧١، علما أن العرب تعلموا الكتابة من السريان وبنوا على قواعدها قواعد الإملاء، ونذكر هنا على سبيل المثال ما جاء في العقد الفريد (٢: ٢٥) لابن عبد ربه (إن ثلاثة من طيء، اجتمعوا ببقعة وهم مرار بن مرة، وأسلم بن سعدة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار، وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانا)، وقال مثله السيوطي في المزهر (١: ٣٩) وكذلك صاحب الفهرست (ص٤٠) نقلا عن ابن عباس، وروى البلاذري في فتوح البلدان (ص٤٧١) كلاما مطولا على هذا الموضوع.

وفي هذا الكتاب نكتشف أكثر فأكثر السريانية ـ العربية ومدى مساهمتها في بلـورة شخصيتنا السورية العربية، ومدى تفاعل الثقافة السريانية مع شقيقتها العربية، فـالأواصر التي جمعت وشدت العرب إلى السريان والسريانية، مما يكتب عنه المجلدات، وقلما عـرف التاريخ مثل هذا التلاحم والتآزر الذي جمعهما معاً، حتى أن بعض المؤرخين يظنـون أن السريان هم العرب والعرب هم السريان، كما قد يحصل للبعض إذا زار قرى ثلاثاً قريبـة من دمشق يتكلم سكانها السريانية، مع أنهم مسلمون في غالبيتهم.

وعندما بدأت أبحاثي التاريخية حول السريان، أدركت أن الإلمام بالتاريخ العام لابد من أن يغير نظرة الإنسان إلى التاريخ السوري، وربما كان من المحتمل أن يغير تلك النظـرة إلى الفروع المنفصلة الأخرى التي تفرعت إليها دراسة السريان، فتاريخ المنطقـة، كما يعرضه البعض، ليس فحسب تفسيرا ناقصا للحضارة السورية، بل هو لا يعد تفسيرا جزئيا مرضيا، فالموضوع في حاجة إلى دراسة جديدة على ضوء تجارب البشرية كلها.

إن ما أسبغ على البشر عظمتهم الخاصة هو بحثهم عن حقيقة أنفسهم وعن علاقتـهم بالكون، ويضاف إليه ما قاموا به من محاولات لإبراز صور الحقيقة في أشكال تسر عقـل الناظر إليها وحواسه، وبالرغم من أن محاولات الاقتراب من الحقيقة تبدو بـلا هـدف إذا نظرنا إليها من زاوية (الخبز والزبد اليوميين)، فقد كان لها مع مرور الزمن، تأثير هـائل في الطرق التي وفرت الحاجات اليومية للناس، وكان للتغيرات التي أصابت هذه الطـرق على يد العلم والإيمان والعبادة ومنجزات الفن دور مهم في تعزيز مصير التـاريخ، وأنـا أكتب هذه الصفحات آملا في أن تساعد على جعل تاريخ سورية مفهوما مـن حيـث هـو محاولة لخدمة إنسان هذه المنطقة، على الرغم من أن المحاولة حافلة بالنكسـات وخيبـات الأمل من مواضع كثيرة.

ودراسة الماضي لا تنفعنا في شيء سوى التعرف على الواقع الراهن الذي هو الظـلام بين ومضتين من ومضات منارة تبعث بنورها لهداية السفن. إنه لحظة بين دقتين من دقات الساعة.. إنه فترة من الفراغ تندس دائما لتملأ مكانها في تيار الزمن... إنه الصـدع بيـن الماضي والمستقبل.. إنه ثغرة عند قطبي المجال المغنطيسي الدوار، متناهية في الصغـر، ولكنها في النهاية حقيقية... إنها لحظة التوقف بين أجزاء الزمن المتصل التـي لا يحـدث فيها شيء.

أما لحظة الواقع فهي كل ما يمكن أن نعرفه مباشرة، وأما سائر أجزاء الزمن فلا تظهر إلا على شكل إشارات يحملها أناس على حين غرة وينقلونها إلينا في هذه اللحظة في مراحل عديدة لا حصر لها. وتشبه هذه الإشارات الطاقة الحركية التي تخزن حتى لحظة إشعار معينة تنحدر عندها الكتلة في جزء من خط سيرها إلى مركز النظام الانجذابي.

والسؤال هو: لماذا لا تكون هذه الإشارات القديمة واقعية؟

إن طبيعة إشارة ما هي أن رسالتها لا ترتبط بالزمان والمكان الحاليين وإنما بزمان ومكان ماضيين، وبما أنها إشارة فهي إذن فعل ماض لا يدخل في نطاق (الآن) المرتبط بالوجود الحالي، أما إدراك الإشارة فيحدث (الآن)، ولكن الدافع إليها ونقلها حدثا (آنئذ)، وعلى أي حال، فإن اللحظة الحالية هي السطح المستوي الذي تقام عليه أعمدة الإشارات لجميع أشكال الوجود، وما من مستوى زمني آخر يجمعنا عامة لنلتقي في ذات اللحظة المصيرية.

* * *

سورية[*] مهد حضارات قديمة، مسرح حوادث تاريخية أدخلت فيها كثيرا من العناصر البعيدة والقريبة مخلفة فيها كل تلك المؤثرات، رواسب هي ــ غير هذا وذاك ــ قاعدة في عاميتنا التي نتداولها الآن والتي منها الكثير من الفصيح العربي وطريقة التعبير العربية، أو التقاء السريانية بالعربية حيث يظهر في آلاف الألفاظ المتشابهة معنى ولفظا كقولنا Ktab كتب، Aayno عين، Bayto بيت، Abo أب، Foumo فم وغير ذلك.

كما أن في العربية الكثير من الأعجمي الخالص الذي يسهل رده إلى أصله فهي واضحة جلية ، وإنما ما أريد أن أشير إليه هو لا بالأعجمي ولا بالفصيح، بل هو بين هذا وذاك، له شبه في الفصحى ولكنه محرف عنه أو مختصر في حروف عنه، كما يبدو لأول وهلة، هذا الذي نراه مسخا عاميا وليس هو بمسخ وإنما هو أصل فصيح في لغة سامية أخرى هي السريانية، التي صمدت في سورية حتى غزوات التتار في القرن الرابع عشر

---

[*] ترجح ورود أحرف كلمة (سورية) في هذا الكتاب بين التاء المربوطة في الأخير والألف، حيث إنه إلى بداية الستينات من القرن العشرين كانت توضع الألف في الأخير (سوريا) ــ وهي الأصح ــ بدل التاء المربوطة، ومنذ ذاك الوقت ازداد استعمال التاء المربوطة على الصعيد الرسمي. كما أن سورية كتعريف بهذا الاسم والمساحة تجدها في فصل لاحق.

وظلت محكية في لبنان حتى أوائل القرن الثامن عشر، ولا زال البعض يتكلمها في سورية، مما جعل من أعظم مؤرخي العرب د. فيليب حتي يقول: ((إن الفوز الذي حققته السـريانية وهي لغة لا تدعمها سلطة إمبراطورية من أهلها ليس له مثيل في التاريخ))،[١] وهـذا مـا يجعل من دراسة مسألة كهذه تصل إلى (أن التغير الحضاري هو، في آخر تحليل، تغـير إنساني في وسيلته وفي غايته)[٢]

والغاية التي وضعت لمنهجية هذا الكتاب هي المعرفة أو فهم الطرائق، ومثل هذا الفهم يقتضي في البحث التاريخي شيئا أكثر بكثير من مجرد ترتيب الحوادث على النحو الـذي وقعت فيه زمنيا، فتدوين الحوادث على ذلك النحو يمدنا بالأخبار لكنه لا يحمل معه فـهما لعلاقاتها، فإذا أردنا فهمها، ينبغي علينا أن نكتشف وجوه ارتباطها بعضها ببعض عـلاوة على ارتباطها من حيث التتابع أو الاتفاق الزمنيين، وينبغي علينـا، بصـورة خاصـة، أن نكشف عن الصلة بين الأحداث من حيث أن بعضها علل وبعضها معلـولات، ويسـتطيع الإنسان أن يفترض درجة أعلى من الاحتمال أو الوثوق ليس عندما يكون للأقـوال سـند تجريبي فحسب، بل وعندما تتفق مع نظرية معتمدة في التاريخ، والعلم الاجتماعي، أو كمـا يقول والش[٣]، فإن البنية النهائية للحقيقة في التاريخ، وفي المعرفة الحقيقيـة كلـها، هـي التناسق الداخلي بين المعتقدات التي نبنيها على ذلك الأساس[٤]، وهذا الأمر مضمـر فـي منطق الأسلوب العلمي، الذي اتضح تاريخيا من عملية التحليل الـتراكمي فـي مختلـف الميادين، كما أنه يمثل النظريات الحالية في المعرفة، فالتناسق الأساسي للحقائق والنظريات المقررة هو أفضل عمل للمعرفة العلمية الموضوعية في أي ميدان، وبهذا نكون قد عرضنا نظرية في المعرفة التاريخية، ولكنها لا تضع في متناولنا حلا سهلا لمشكلة (وزن الشواهد) في الشهادات المتضاربة، والوقائع المختلطة، والمؤثرات في الشخصية، أو التغيرات فـي السجلات القديمة.

---

[١] د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد، و د. عبد الكريم رافق، الجـزء الأول دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ ص١٨٣.

[2] Kingsley David: Human Society. Macmillan co. NewYork 1950 p.621.

[3] W. H. Walsh: An introduction to philosophy of history. Hutchinson's University Library - London 1951 P 93

[4] Wilson H. Coates: Relativism and the Use of Hypothesis in history Journal of Modern History, 21 - 27 March 1949

وعلى هذا سرنا في بحثنا، متجنبين الخلط في الوقائع المسنودة إلى مراجعها الأصلية، محاولين ربطها بالحاضر المشاهد والملموس، حتى نستشف الماضي من خلال الواقع العياني وتكتمل الصورة لدى القارئ.

ونجد في الزمن التاريخي أن ما يتأثر باهتمامنا هو ذلك النسيج من الوقائع الذي يربط بين أشكال الوجود المختلفة عبر الفترات الفاصلة كلها، ذلك أن الزمن، كالعقل، لا يمكن معرفة ذاته أو جوهره ، فنحن لا نعرف الزمن إلا صورة غير مباشرة عن طريق ما يحدث فيه: أي بملاحظة التغير والدوام، وإدراك تتابع الحوادث في الأوضاع المستقرة، والانتباه إلى التباين في سرعات التغير المختلفة، ولا تزودنا الوثائق الكتابية إلا بسجلات إخبارية ناقصة وحديثة العهد نسبيا عن بعض أجزاء العالم، ولذا فإن معلوماتنا عن العهود الغابرة تعتمد بالدرجة الأولى على بينات بصرية ذات أمد مادي وبيولوجي.

والمؤرخ يسهم في اكتشاف الأشكال المتعددة المنوعة للزمن، أما هدفه فهو أن يصور الزمن، وذلك بغض النظر عن ميدان تخصصه العلمي، فهو مدعو إلى اكتشاف شكل الزمن ووصفه، وهو ملزم بأداء هذا الواجب، وهو يحاول أن ينقل صورة صادقة عن الوضع، فتراه ينشئ، ويكيف ويبني ويلون الصورة التي يرغب في تقديمها، مثله في ذلك مثل الرسام الذي يسعى إلى نقل صورة صادقة عن هوية موضوعه الحقيقية، ويجب عليه لتحقيق هدفه أن يكتشف مجموعة نموذجية من الخواص التي تسهل عملية التعرف على الموضوع وتنقل في الوقت نفسه إدراكا حسيا جديدا له.

ويختلف المؤرخ عن عالم الآثار وعن الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى البحث، كما يختلف الملحن لموسيقى جديدة عن العازف في جوقة موسيقية، فالمؤرخ يستخرج معان جديدة من التراث الثقافي الذي تناهى إليه، بينما ينحصر عمل عالم الآثار في إعادة إنتاج جزء خفي من الماضي أو إعادة بنائه وتقديمه بأشكال مألوفة لدينا، وما لم يكن المؤرخ مجرد مدون أو مؤرخ إخباري، فإنه ينقل إلينا نمطا لم يلحظه أولئك الذين عاشوا وفق ذلك النمط، ولم يتعرف عليه معاصرو المؤرخ إلا بعد أن يزيح الستار عنه.

والتاريخ، إن صح القول، ظل الإنسانية لا ينفصل عنها، ويستوعب الإيقاعات المتعددة، الخاصة والجماعية والنفسية والعاطفية والاقتصادية والفنية ليحتفظ بها مجففا إياها تحت هذا الشكل المبسط المنقى المصطنع، الذي يفرضه زمن التقويم، فما دام ذلك كله

كذلك فإننا لا نستطيع أن نستغني عن التاريخ، فهو الذي يشمل القسم الأكبر من التفسير ومن أصل الواقعات البشرية.

لهذا فإن الحديث عن السريانية ـ العربية: الجذور والامتداد هو تذكير بماض كدنا أن ننساه نحن أبناء هذه المنطقة، فيما اعتاد الأجانب منذ أزمان أن يدرسوا اللغة السريانية بعد اليونانية والعبرانية، وأما السريان أنفسهم ولا سيما الذين يقطنون سورية ولبنان والأردن وفلسطين فنرى بغاية من الأسف أنهم ساروا منذ زمان يحتقرون هذه اللغة الشريفة التي يجد الغرباء في أقاصي أطراف الدنيا في تعلمها ويصرفون الهمم الجزيلة في توسيع علمها، حتى أنك قلما تجد الآن في هذه البلاد من يبذل أدنى سعي في أحكام لغته هذه القديمة، (بل أن مما يستحق كل الاستغراب والتأسف أن يرى أهالي البلدان التي ذكرناها سابقا مع العراق الذين هم كلهم من الجنس السرياني إلا الأمم القليلة التي اختلطت معهم من عرب وغيرهم قد نسفوا أصلهم في الغالب وقلما يوجد فيهم اليوم من يعرف أنه هو في الأصل سرياني جنسا إلا الذين هم سريان في المذهب الديني).[١]

إن العناية التي نوليها لأوابدنا وهي شواهد خرساء على عظمة الحضارات التي موت بالمنطقة، تجعلنا نتساءل عن سر عدم الاهتمام بالمحافظة على اللغة السريانية التي قامت في سورية، حتى كدنا نمسخها من الوجود، وكأنها تذكر بماض نهابه فنحاول تجاهله أو طمسه.

ربما كانت مادة هذا الكتاب بما حوته من حقائق تاريخية، قد أزاحت الكثير مما غمض عن أعين المؤرخين حين تناولوا العربية دون ربطها بالسريانية وهذا ما أملنا أن نقوم به في هذا الكتاب، الذي وضعنا له في البداية، عنوان (السوريون والهوية الثقافية السريانية)، ولظروف قاهرة عدل العنوان إلى (السريانية الجذور والامتداد). مع بعض التعديلات.

سمير عبده

ص . ب ٩١٤ - دمشق

---

(١) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية. جزءان طبع في دير الآباء الدومنكيين ـ الموصل ١٨٩٨ الجزء الأول ص ٢٤.

تمهيد

يهدف هذا الكتاب فيما يهدف إليه إلى إعادة كتابة تاريخ سورية الطبيعية، وإلقاء الضوء على ماضٍ لم يعط حقّه كما يجب، فالحدود المصطنعة التي أوجدت بعد اتفاقية سايكس ــ بيكو ١٩١٦[١] والتقسيم الذي فرض لتقطيع سورية[٢] جعل دول المنطقة تتجه إلى الكيانات الصغيرة، وبالتالي طمس التاريخ العريق لهذه البلاد عبر حدود ضيقة تتناول الحاضر دون الرجوع إلى الماضي ووعيه.

فإعادة بناء الحاضر يجب أن تتم في آن واحد مع عملية إعادة بناء الماضي، وذلك بتفكيك عناصره وإعادة ترتيب العلاقة بين أجزائه بصورة تجعله كلاً جديداً قادراً على أن يؤسس نهضة، على أن يكون أرضاً لأقدام المستقبل[٣].

والتاريخ الثقافي السوري كما هو سائد اليوم هو تاريخ علوم وفنون من المعرفة منفصلة بعضها عن بعض، تاريخ زمنه راكد وممزق لا يقدم لنا صورة واضحة ومتكاملة عن كلية الفكر الذي ساد في المنطقة ولا عن صراعاته ومراحل تطوره، بل يقدم لنا (معرضاً) أو (سوقاً) للبضاعة الثقافية الماضية وكأنها تحيا زمناً واحداً، زمناً يعاصر فيه القديم الجديد مثلما تعاصر البضاعة القديمة البضاعة الجديدة خلال فترة المعرض أو السوق، والنتيجة من ذلك تداخل الأزمنة الثقافية في وعينا بتاريخنا الثقافي، الأمر الذي يفقدنا الحس التاريخي، ويجعل حلقات الماضي تتراءى أمامنا لمشاهد متزامنة وليس كمراحل متعاقبة، هكذا يتحول حاضرنا إلى (معرض) لمعطيات ماضينا، فنقيس ماضينا في حاضرنا هكذا جملة واحدة، دون تغاير ودون تاريخ.

---

[١] رمزي ميور: النتائج السياسية للحرب العظمى ترجمة محمود بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٣٦ ص١٨٦.

[٢] جيمس موريس: الملوك الهاشميون بيروت ١٩٥٩ ص ٦٨.

[٣] د. محمد عابد الجابري: إشكاليات الفكر المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت ١٩٨٩ ص٣٩ .

إن الماضي والمستقبل هما كالحاضر ليسا واقعين جامدين ولا شبحين ملفوفين في كتلة من الضباب، بل هما صيرورة وحركة ونتيجة صيرورة وحركة.

والكلام عن الهوية الثقافية السورية يثير التساؤلات، عدا إثارته للعواطف التي تصبها على الهوية التي ننتمي إليها أو نتعلق بها، فالأثر السرياني في حياتنا الفكرية والعملية كبير، وكي نفهم هذا البعد علينا أن نقوي الأساس القومي، فالأمم هي أجزاء حضارية صغيرة من مجتمع حضاري كبير، لا هو بالقومي ولا هو بالعالمي، إنما بين بين، وبمعنى آخر لا يمكن تاريخياً فهم أي جزء من أجزاء المجتمع الكبير فهماً كاملاً تاماً، دون النظر إلى علاقاته التاريخية ضمن هذا المجتمع الكبير، وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نفهم الحضارة الإسلامية، إلا إذا فهمنا تاريخ سورية، وكذلك لا يمكن فهم تاريخ سورية، في هذه الفترة المعينة، إلا إذا درسناه ضمن هذه الوحدة التاريخية الممكنة الإدراك، التي هي مجتمع الشرق الأوسط الإسلامي.

وقد جرت العادة أن كل حضارة جديرة بالاحترام اتسمت بالعجرفة والاشمئزاز تجاه الأجانب، بينما عكس الحال بين الحضارة السورية السريانية والحضارة العربية الإسلامية، فالاثنان لا يفوتان الفرص، لذكر تعاضدهما معاً في حضارة المنطقة دون أن نستثني الأصوات غير المدركة لسيرورة التاريخ في ذلك.

ويمكننا إيراد ألف شاهد على ما نقول، فقد كان اليونانيون يشكرون الآلهة لأنهم خلقوا يونانيين وليسوا بربريين، رجالاً وليسوا نساءً، أحراراً وليسوا عبيداً، ولم يخفِ الصينيون رعبهم مما أسموه (الشياطين الأجنبية الدميمة) التي جاءت إلى شواطئهم، ولا يبدو أنهم قد اهتموا على نحو جاد ـــ ولمدة ألفي عام أو ما يزيد ـــ بأي مجال من مجالات الثقافة الأجنبية باستثناء البوذية الهندية، وصناعة السجاجيد والخزف الفارسي. في عام ١٧٩٣ عبّر الإمبراطور عن توجه بلاده إزاء أوربا بقدر من الحكمة والذكاء، وأن يكون باللباقة الكافية، وذلك من خلال ما قاله للمبعوث البريطاني الذي جاء يسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية:

(إذا كان احترامكم وتبجيلكم لسلالتنا المقدسة، يملؤكم بالرغبة في استيعاب حضارتنا، فإن احتفالاتنا ونظم قوانيننا تختلف كلياً عن تلك التي تملكونها، وحتى إذا كان مبعوثكم قد

تمكن من استيعاب مبادئ حضارتنا فإنكم لن تستطيعوا نقل عاداتنا وخصوصيتنا إلى أرضكم الغريبة عنا، لقد اخترقت الفضيلة الرائعة لحضارتنا كل البلدان على وجه هذه الأرض، وقدّم ملوك كل الأمم الأتاوات الباهظة عبر البر والبحر، وكما يرى سفيركم بنفسه، فإننا نملك كل شيء، وأنا لا أجد قيمة للأشياء الغريبة أو المبتدعة، لذا لا أجد أي فائدة لصناعات بلدكم)(١).

أما التوجه الهندي فقد كان بسيطاً، إذ يصبح كل من سافر إلى أرض غريبة كائناً ملوثاً، أما بالنسبة إلى المسلمين في القرن الرابع عشر، فقال ابن خلدون العظيم أنه بسبب سوء المناخ فإن أخلاق الزنوج (قريبة من خلق الحيوانات... وكذلك الصقالبة)(٢).

وعلى الرغم من النظرة إلى الأوروبيين التي كانت سائدة آنذاك والتي اعتبرتهم كاملي الإنسانية، بل وعلى درجة عالية من التحضر، إلا أنه لا ابن خلدون ولا من جاؤوا قبله أو بعده بذلوا أي جهد ولو طفيف لمحاولة تعلم لغاتهم أو دراسة ثقافاتهم(٣) ولتأكيد هذا الرأي نرى أنه في القرن الثاني عشر، حين وصف الرحالة ابن جبير جزيرة صقلية وغيرها من الأراضي المسيحية، فإنه لم يعرب عن أي اهتمام بعادات سكان تلك المناطق أو بمؤسساتهم، بل أنه لم يكف عن استنزال لعنات الله على أولئك (الكفرة)، ويمكن ذكر أضعاف مثل هذه الأمثلة:

حينما أخبر السفير الفرنسي في منتصف القرن السابع عشر الصدر الأعظم محمد كوبريللي أن مولاه قد استولى على مدينة أراس القوية من الإسبان، لم يكن رد الصدر الأعظم أكثر من: (ماذا يهمني فيما إذا كان الكلب هو الذي يعض الخنزير أو الخنزير هو الذي يعض الكلب، سوى أن يكون رأس سيدي في أمان؟)(٤). وعلى صعيد آخر، خلص مصطفى نعيمة ــ وهو من معاصري نيوتن ولايبنز وأولر ــ من دراسته المستفيضة لأعمال عدد من الباحثين العثمانيين المتواضعين إلى هذه الملاحظة:

---

(1) Arnold Joseph Toynbee: A study of History. Oxford University Press - London 1934 vol1, p 161.

(٢) ابن خلدون: المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي لجنة البيان العربي–القاهرة ١٩٥٨ الجزء الثاني ص ٨٩.

(٣) شارل عيساوي: تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية–بيروت ١٩٩١ ص١٦٦.

(4) Paul Rycan (sir): The History of the Present State of the Ottoman Empire. Printed by T.N. for Starkey - London 1982 p. 167.

(ويكفي هذا جداً لإيقاظ غيرة المسيحيين، إذا لم يكن هذا يروقك، فأعرض عنه ولا تحفل به)(1).

نعود بعد هذه الشهادات لنقول إننا لا نقصد بهذه الاستشهادات سوى تصحيح الرأي بما يتناول بشأن مسألة التاريخ، وحركته، فإذا كانت الأثينيات التي سكنت هذه المنطقة قد انصهرت في بوتقة القومية العربية، فهذا لا يمنع من تناول الجذور، بل ذلك دعم للقائم، وبالتالي ترسيخ له، وليس غير ذلك، كما قد يظن البعض، فليس هدف الكتاب قلب الحاضر بل تجذيره بشكل علمي أشمل.

إن الأمة السورية التي بنت حضارتها عبر التاريخ، الممتد لآلاف السنين لا يمكن حصره بما هو بيّن في الوقت الحاضر، فبنية الإنسان وعقليته لها امتدادات عميقة في القدم، لا تقاس بمئة ألف سنة، وبالتالي من حق كتّاب التاريخ دراستها وإلقاء الضوء عليها حتى تستتير الصورة وتأخذ مكانها في أي دراسة توضع لهذه المنطقة أو تلك.

وإذا كان الكتاب قد اتخذ من السريانية ــ العربية دليلاً في طروحاته، فإن كلمة (سرياني) ــ ولو أنها ضيقة المعنى ــ هو ما أضافه عليها بعض المؤرخين من أمثال الأب شابو وروبنز دوفال حيث قصروا هذا الفهم على الأدب المسيحي المكتوب باللغة السريانية. وكما هو معروف فإن بلاد الشام استعملت هذه اللغة لزمن طويل، ولقد بقيت منتشرة فيها انتشاراً واسعاً حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ومن ثم اضمحلت إلا في ثلاث قرى سورية تقع في الشمال من دمشق ومعظم سكانها من المسلمين.

إن الآرامية السريانية، والتي يجمع العلماء على أن السريانية جاءت نسبة إلى سورية، تشمل أقواماً عديدة يعيش بعضها خارج سورية ولا يمت إليها بصلة، لهذا أصبح مفهوم السريانية، بعد السيطرة العربية، مقتصراً على لغة مسيحيي سورية وبعض العراق، وهذا ما يعنيه عادة العلماء الذين يساوون بين السريانية والأدب المسيحي السوري.

رب سائل يسأل: لِمَ حصرنا بحثنا في السريان دون غيرهم من شعوب سكنت هذه المنطقة، وجوابنا هو أن السريان هم سكان سورية الأصليين لهم امتدادهم إلى وقتنا الحاضر من خلال الكنيسة الشرقية التي تضم الأمم الآرامية اللغة، سواء كانت لهجتها

---

(1) Mustafa Naima: Annals of the Turkish Empire. From 1599 to 1659 of The Christian Era, translated by Charles Faster. John Murray - London 1922 vol1, P9.

غربية أو شرقية، التي عاشت في فلسطين وسورية ولبنان وما بين النهرين وبلاد الفرس وبلاد العرب، وتفرعت بحكم الزمان والأحداث السياسية والمكانية والمذهبية إلى سريان وآشوريين وكلدان وموارنة ومؤخراً إلى سريان كاثوليك.

إن غايتنا فيما ندونه هو أن السريانية هي ربيبة للبيئة السورية، تشمل كل من استخدم تلك اللغة في بلاد الشام أو أنتج فكراً وعلماً فيها ممن ترك أثراً في الخط الحضاري الذي نشأ بعد دخول الإسلام، ولذلك فكلمة سرياني تعني لنا (سوري) قبل إسلامي، وليس مجرد من استخدم اللغة السريانية من الكتاب المسيحيين، وقد تكون هذه التسمية مفتعلة أو مخطئة، ولكنها مناسبة في محاولة وصف دور السريان في الحياة الفكرية والعلمية التي سبقت الإسلام بقرون.

وهناك من قد يرى أننا في تناولنا لموضوع غير عربي أو غير إسلامي هو خروج لما جرى في السابق، وعليه نقول إن العروبة المتجسمة في روحنا وفكرنا لا تمنع من إلقاء الضوء على الأصل الذي بنت عليه هامتها، وأن نفرّق بين الإسلام كعقيدة دينية والإسلام كحضارة، فإذا كان الإسلام كعقيدة ثابتاً فالإسلام كحضارة متحول، والحضارة هي ما يحققه الإنسان في الطبيعة، الحضارة تعني ما يحدثه أو يبدعه أو يبدله الإنسان في كائن ما، أو في أمر طبيعي يصبح له قيمة، فالحضارة التي ظهرت في بلاد الروم، وفيما بعد في العالم العربي كله، هي من صنع الناس الذين قطنوا هذه البلاد.

وكلنا يعرف أنه لم يكن لعرب الجزيرة ما يصح أن نسميه علماً متكاملاً، بمعنى دراسة منتظمة للطبيعة ومظاهرها وقوانينها، فالتراث العلمي العربي لم يتولد إلا مع الإسلام، وبعد ظهور الإسلام، فالفلسفة مثلاً والطب وعلوم الطبيعة لم تظهر من العدم، بل من أصول مختلفة، ومصادر متعددة، ومن هذه الأصول، أصل عميق الجذور هو الأصل السرياني[1]،

والشعب السوري يقف اليوم على حد من الزمن، يتحداه فيه ماضيه المجيد، ومستقبله الغامض، فإن لم يجعل العلم المنشئ ــ قدرة وقيمة ــ بعض عدته في الاستجابة لهذا التحدي، فأغلب الظن أنه سيبقى متخلفاً عن ركب الزمن، مستضعفاً عند العدو والصديق

---

[1] جورج عطية: بلاد الشام في العهد البيزنطي، بحث القي في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ الشام الجامعة الأردنية عمان ١٩٨٦ ص١٤٢.

كليهما، وهويتنا السريانية متغلغلة في تاريخنا السوري وهي رهن مشيئتنا وأننا نستطيع بالاستناد إليها، أن ننمي مواردنا الإنسانية والطبيعية أتم إنماء وأفضله، وأن الإيمان بأننا نستطيع، ينبغي أن يكون حجر الزاوية في منهج كل معهد من معاهد التعليم، وكل وسيلة من وسائل التربية.

ونحن إذا صرفنا النظر هنيهة عن المعاني الدينية العالية التي أشرقت على أرجاء العالم، من هذه الأرض، فليس ثمة ريب أن نصيب الحضارة السريانية في بنيان الحضارة العالمية كبير.

فالسريانية هي الوريثة الحية المباشرة والرئيسة لحضارات بلادنا، هذه البلاد هي مهد الحضارة في العالم من خلال حضارات سومر وبابل وآشور وآرام وفينيقيا، ومنها عرف الإنسان: البيت الأول، الزراعة والصناعة الأولى، الكتابة المسمارية (سومر، بابل) والكتابة هي الفاصل بين (التاريخ) وما (قبل التاريخ)، الأبجدية الأولى: أوغاريت ــ رأس شمرا، بيبلوس، الملحمة الأولى لأقدم الآداب جلجامش، أول دولاب وأول نظريات الهندسة والجبر التي سبقت نظريات فيثاغورس وطالس، أول تقسيم للوقت: أي لسنة وأيام وساعات ودقائق وثوان، أقدم علوم الفلك، أقدم خريطة في العالم (بابل)، أقدم الشرائع: حمورابي، أقدم مكتبة ومتحف: أشور بانيبال، الجامعة الأولى، أقدم طب، أول مدرسة ديمقراطية: في سومر وآكاد، أول معزوفة موسيقية: في سومر، أقدم الحكم والأمثال التي تقدس القيم الإنسانية: أحيقار، وزير الملك سنحريب الآشوري[1]

لا نريد القول من دراستنا أننا نفضل هذه الحضارة عن تلك، فكلامنا عن الأثر السرياني أو الدور السرياني ليس غايته القول بأن الثاني تابع للأول فكرياً أو حضارياً، بل تأكيد التواصل الحضاري في منطقة بلاد الشام.

---

[1] ابروهوم نورو في محاضرة بعنوان (أهمية اللغة السريانية وطنياً وحضارياً) ألقيت في مقر الرابطة السريانية ــ بيروت ١٩٩٨/٤/٢ ص١-٢.

سوريـــــا

التسمية والحدود

عرّف (متى ٤ :٢٤) و(لوقا ٢:٢) اسم سورية بالبلاد التي تمتد على شـــاطئ البحــر الأبيض المتوسط وإلى الداخل، وهي التي أطلق عليها العبرانيون اسم آرام، ويقول البعــض أن الاسم سورية هو اختصار لكلمة آشور، وقد جرى استعمال هذا الاسم المختصر بعـد أن غزا الإسكندر الأكبر هذه البلاد.

ويستبعد أحد المصادر ذلك[1] ذاهباً إلى أنه لغايات سياسية حاول بعضهم إيهام السريان بأنهم يتحدرون من الآشوريين، أنه اختراع الإنكليز الذين أرادوا عام ١٩١٩ أن يؤلفوا مــن السريان جيشاً سموه آشورياً لمقاصدهم السياسية، ولا يخفى أن متى ولوقـــا وجـدا قبـل الانكليز بفترة طويلة جداً.

فيما ذكر المستشرق الفرنسي ارنست رينان أن اسم آرام بُدِّلَ في أيام السلوقيين باســم سورية وهو اختصار لكلمة (اسوريا) حسب اللفظ اليوناني، وبقي اسم آرام للذين لم يعتنقـوا الدين المسيحي، وهذا الرأي غير صحيح لأن السلوقيين ملكوا وانتهى ملكهم قبــل مجـيء المسيح (٣٠٥-٩٥)ق.م، فليس معقولاً أن يغيّر الآراميون اسمهم باسم سريان قبــل مقـدم المسيحية.

ومما لا شك فيه أن الآرامية والسريانية لفظتان مترادفتان، رغــم اختــلاف ذكرهمــا وتعدد لهجاتهما، وأن كلاً منهما تدل على الأخرى بتمام معناها أينما وجدت، نذكر مثلاً مــا ورد في الكتاب المقدس، وهو أقدم كتاب تاريخ صحيح، عن نعمان رئيس جيش ملــك آرام (٤ملوك ٥ ولوقا ٤: ٢٧) ترجمه النقلة بلفظ سوري أو سرياني أو شامي أو نبطي، والنبـط

---

[1] عبد الهادي نصري: شمس آرام شمس العرب حلب ١٩٨٦ ص٨٨.

قوم كانوا ينزلون بين العراقيين، وكانت الآرامية أو السريانية لغتهم الوطنية، كما نرى في الكتاب المقدس ذاته، ما يبين أن لفظ سوري بمعنى سوريا قد عرف منذ عهد نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦١ق.م) فقد ورد في سفر يهوديث (٣ :١) كلام عن (سكان سوري أو سوريا) ثم أثبته الكتاب مراراً بالألف هكذا (سوريا) (متى ٣: ١٣ -٧: ٣٩إلخ) حتى جاء العرب فنقلوا الاسم عن السريان لا عن اليونان وقالوا (سوريا) ولم يكتبوا سيريا، أو صوريا، أو آشوريا أو أثوريا، كأنه منسوب إلى سيرى، أو صور، أو آشور، أو آثور، وذلك خلافاً لما ادعاه رينان المستشرق في مؤلف (تاريخ اللغات السامية) وجر وراءه كثيراً من المستشرقين والمؤرخين إلى أضاليل تاريخية.

ويرى جرجس شاحت أن الآرامية معناها السريانية ولا فرق بين الاثنين سوى أن الأولى كانت أكثر شيوعاً وراء ما بين النهرين، والثانية تسيطر خاصة في الوطن الذي تشرف باسمها (سوريا)، وهذا الفارق، على ما يبدو، هو الذي صار سبب البلبلة في بحث المؤرخين، الذين اقتصروا في دروسهم على ناحية من البلاد السريانية الآرامية الواسعة الأرجاء.[1]

ويناقض كل ذلك ادى شير ذاكراً أن (للكلدان المسيحيين أسماء كثيرة في التواريخ، فسموا آراميين نسبة إلى آرام بن سام الذي استوطن هذه البلاد وعمرها بنسله، وفرسا لكونهم وجدوا في مملكتهم، ومشارقة لأنهم في المشرق، ونساطرة لاتباعهم تعاليم نسطور بطريرك القسطنطينية، وسريانا شرقيين تميزاً لهم من السريان الغربيين وهم اليعاقبة، لكن اسمهم الأصلي كلدان آثوريون جنساً ووطناً لأن منشأ كنيستهم ومركزها كلدو وآثور ولغتهم الجنسية والطقسية هي الكلدانية، ويقال لها أيضاً الآرامية وغلطاً سميت سريانية، كما أنه غلطاً أيضاً سمي النصارى سرياناً)[2].

كما يذكر ادى شير أن اسم السريان (اسم غريب خارجي أطلقه المصريون ثم اليونان على أهل سوريا، ومن اليونان استعاره الآراميون الغربيون، ومن السريان الغربيين سرى

---

[1] جرجس شلحت: لغة حلب السريانية المطبعة المارونية ــ حلب الطبعة الثانية ص١٥ مرجع سابق.

[2] ادى شير: تاريخ كلدو وآثور طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ــ بيروت الجزء الثاني ١٩١٣ ص المقدمة ج

إلى المتنصرين من الكلدان الآثوريين لأنه من سوريا أتتهم المسيحية، فتسموا باسم السريان تمييزاً لهم من الكلدان الآثوريين الوثنيين، فلم يكن الاسم السرياني يومئذ يشير إلى أمة، بل إلى الديانة المسيحية لا غير)[1]

ويرى العلامة المطران يوسف داود بأن لفظة السريان أعجمية زعم باطل لا أصل له لأنه قول بلا سند ولا بينة، ولأن الباقين من السريان الأقدمين في بلاد آثور وكردستان وبلاد الشام إلى يومنا هذا يسمون لغتهم بلسانهم سريانية، ولا يصدق أن أمة صحيحة منتشرة في جانب عظيم من الأرض تترك اسم لسانها وجنسها، وتستبدل به اسماً آخر أعجمياً[2].

ويتابع داود قائلاً: زعم قوم أن اسم السريانية اسم أعجمي وضعه اليونانيون أولاً للآراميين، ثم دخل بين السريان وسائر الأمم إلى اليوم، وأصحاب هذا الزعم هم من علماء الافرنج المشتغلين بالعلوم العبرانية الذين لكثرة اشتغالهم بالأمور العبرانية يتخذون هذه اللغة كالقياس بل كالأساس لسائر اللغات السامية، وأكبر برهانهم على أن لفظة السريان هي من وضع اليونانيين هو أن العهد القديم لا يحوي هذه اللفظة. كأن العهد القديم من الواجب أن يحوي كل أسماء الأمم والقبائل، أليس اسم الكرد واسم الترك مثلاً لا يوجدان في التوراة[3].

ولقد ذهب البعض إلى أن لفظة سورية متأتية من مدينة صور قاعدة فينيقية، أو من لفظة (خارو) المصرية وكانت تعني جميع البلاد على سواحل المتوسط، ثم بدلت (خارو) بـ (شارو) ثم بـ (سارو) ثم بسورية[4].

وقال مؤرخون سريان غربيون وشرقيون أن لفظة سورية متأتية من (سورس) الآرامي الذي بنى مدينة أنطاكية واستولى على بلاد سورية وما بين النهرين، وهذا ما جعل

---

(1) ادى شير: تاريخ كلدو وآثور طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين-بيروت الجزء الثاني١٩١٣ص١.

(2) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية طبع في دير الآباء الدومنكيين، الموصل ١٩٩٨ الجزء الأول ص٧

(3) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية طبع في دير الآباء الدومنكيين، الموصل ١٩٩٨ الجزء الأول ص٨

(4) المطران جورج حبيب هافوري: السريان الآراميون من أمسهم الغابر إلى يومهم الحاضر مطبعة الف باء ــ دمشق ١٩٩٩ ص١٥.

ابن الصليبي يقول (لكنهم، أعني اليونانيين يسموننا تعبيراً لنا السريان ونحن نردهم قائلين أن اسم سورس الذي ملك في أنطاكية فدعيت باسمه سوريا، أما نحن فإننا من بني آرام، وباسمه كنا نسمى يوماً آراميين)[1].

على أن ما ذهب إليه ابن الصليبي قد يكون مقبولاً لولا أنه مجرد أسطورة، فإن سورس مجهول في التاريخ، والذي بنى أنطاكية هو سلوقس نيكاتور أحد قواد جيش الاسكندر الأكبر، أسسها عام ٣٠٠ق.م ودعاها أنطاكية نسبة إلى أبيه أنطيوخس.

ومهما تعددت التسميات وتباعدت وتقاربت وجهات النظر حول تحديد أصل اسم سوريا وصلة ذلك بالسريان، فهناك رأي يقول (إن أصحاب رأي اشتقاق لفظ السريان لم يعرفوا به قبل أربعمائة أو خمسمائة سنة قبل التاريخ المسيحي، أما الآراميون الشرقيون وهم الكلدان والآثوريون، فإن نفس التسمية لم تعرف بينهم إلا بعد المسيح على يد الرسل الذين تلمذوا هذه الديار، لأنهم كانوا جميعاً من سورية وفلسطين، وذلك إذا كان أجدادهم المتنصرون شديدي التمسك بالدين المسيحي أحبوا أن يسموا باسم مبشريهم، فتركوا اسمهم القديم، واتخذوا اسم السريان ليمتازوا عن بني جنسهم الآراميين الوثنيين، ولهذا أصبحت لفظة الآرامي مرادفة للفظة الصابى والوثني، ولفظة السرياني مرادفة للفظة المسيحي والنصراني)[2].

أما المسعودي في (مروج الذهب) وفي فصل (ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم) يقول (أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان، وقد تنوزع فيهم وفي النبط، فمن الناس من رأى السريان هم النبط، ومنهم من رأى أنهم أخوة لولد ماس بن نبيط، ومنهم من رأى غير ذلك)[3].

---

(١) الدكتور فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق الجزء الأول دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ ص١٨٤.

(٢) القس يعقوب الكلداني: دليل الراغبين في لغة الآراميين مطبوعات دير الآباء الدومنيكيين ــ الموصل ١٩٠٠ ص١١.

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ الجزء الأول ص١٢٩.

ويرى الجهشياري أن (أول من وضع الكتاب السرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام)[١]

أما الأب اسحق ساكا فله رأي بصدد تسمية السريان في سورية (من المقرر تاريخياً أنه في القرن الخامس ق.م اندمج الآراميون في الآثوريين، وخضعوا لهم، وأصبحوا أمة واحدة، وبسطوا سلطانهم على سورية الداخلية (سورية الحالية، ما بين النهرين ــ فلسطين ــ لبنان)، ولما وصل اليونان الأقدمون هذه البلاد ورأوها خاضعة لسلطة ملوك آثور أطلقوا عليها سورية المعدولة عن آثور أو آثوري، وذلك بأن أبدلوا الثاء بالسين لسهولة اللفظ وقالوا (آسور) أو (آسور)، ثم لمزيد من السهولة حذفوا ألف الابتداء فصارت (سوريا) و(سوري)، ومنها أتت لفظة السريان، وعليه إن أصل التسمية معدولة منسوبة إلى آثور، كما أن لفظة الآرامي منسوبة إلى آرام أخيه، وأخطأ من زعم أن الآراميين تركوا اسمهم القديم واتخذوا لأنفسهم (السريان) تسمية جديدة، إنما أصبح الطرفان يسميان بكلتا التسميتين، إلا أن لفظة السريان كانت الأغلب والأعم)[٢].

وقد استعمل اسم (سوري) بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها، غير أنه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط كمصطلح لغوي، فإن اسم (سوري Syrian) بالانكليزية يشير إلى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية، ومنهم الذين في العراق وسورية ولبنان والأردن، وبقية بلاد الاغتراب وحتى في جنوبي الهند[٣]، بحيث نستطيع القول إن تعبير Syrian يشير إلى المواطن السوري، كما يشير إلى السرياني، أما إذا قصدنا تعريفه بطائفته قلنا Syric.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ١٩٣٨ ص٨٣.

(٢) الأب ــ ومن ثم المطران ــ اسحق ساكا: السريان ــ إيمان وحضارة ج٤، دراسات سريانية ــ حلب ١٩٨٣ ص١٥٠.

(٣) سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ــ عمان ١٩٩٧ ص٣٤.

إن الكثير من المترجمين والمثقفين لا يخطر على بالهم أن أصـــول تســمية ســورية والسوري تعني السرياني[1] بعد أن أصبح اسماً جنسياً أو وطنياً لكل من يقطن هذه البلاد.

حدود سورية

إن الحدود الحالية للجمهورية العربية السورية هي حدود حديثة أوجدت فـــي بدايـــات القرن العشرين، وحيث أننا نتكلم عن حقبة تاريخية وعن حضارة عالمية، فإن ذكـــر هـــذه الحدود كما وردت في سياق التاريخ يعطينا فكرة عن الحدود الحضارية لسورية لا الحـــدود السياسية.

وتتكون سورية من مرتفعات وسهول تمتد من الشمال إلى الجنوب بحذاء شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وتبدأ من الغرب بسهل خصيب يزيد ارتفاعه إلى الشـــرق حتـــى يبلـــغ ٥٠٠ قدم، ويبلغ عرضه في بعض الأماكن ثمانية أميال، وتقع فيه مدن اللاذقية وطرابلـــس وبيروت، ويتلو هذا السهل جبال أعلاها جبلا كاسيوس الذي يبلغ ارتفاعـــه ٥٧٥٠ قدمـــاً، وجبل صنين الذي يبلغ ارتفاعه ٨٧٨٠ قدماً، وتقع في جنوب هذه الجبال برية التيه. ثم تتلو سلسلة الجبال هذه جبال أخرى وهي تواجه لبنان وتمتد للجنوب إلى جبل حرمون، وتقع في جنوبها جلعاد وموآب وآدوم، ثم يتلو هذه السلسلة مرتفعات جبل العرب، ثم يتلو هذه الجبال إلى الشرق أرض ضيقة مزروعة يجري فيها نهر أبانة (بردى) وهو مصدر حيـــاة مدينـــة

---

[1] في عام ١٩٩٧ فازت الكاتبة الهندية (اروندااتي روا) بجائزة بوكر الانكليزية، وهي من أرفع الجوائـــز الأدبية، نقل عن أصلها أنها سورية، لأنها تنتسب إلى الطائفة السريانية السورية في الهند، التي امتـــد إليها السريان منذ مئات السنين بعد أن هاجر البعض منهم إليها، فاضحى للسريان وللسوريين جاليـــة كبيرة تعدادها ينوف على ثلاثة ملاين ونصف.

وقد تناقلت وسائل الإعلام العالمية هذا الخبر، فكان أن أوقع هذا النبأ كونها سورية بعـــض الإربـــاك لبعضها في منطقتنا ولم تخل صحيفة أو مجلة من إيراد هذا الخبر، البعض لم يذكر أن أصلها ســـوري مثل صحيفة الأهرام ــ القاهرة ٣ نوفمبر ١٩٩٧ ص٢٥ أو صحيفة الكفاح العربي ــ بيروت تـــاريخ ١٩٩٨/٤/٢٣ ص١٦ فيما عنونت صحيفة الثورة الصادرة في دمشق للخبر (جـــائزة بوكـــر الأدبيـــة لهندية من أصل سوري، الأحد ١٩٩٧/١٠/٢٦ص٨، كما عنونت صحيفة الشرق الأوسط لندن لخبرها بتاريخ ١٩٩٧/١٠/١٦ ص٢٢ بعنوان (هندية من أصل سوري تفوز بأرفع جائزة أدبية بريطانية).

دمشق التي تقع في هذا الجزء، ثم يلي هذا بعض الأنهار والينابيع التي تتحكم الجبال في سيرها وكمية مياهها[١].

وكانت مساحة سورية في عهد الامبراطورية الرومانية (١٠٩) ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها في تلك الفترة (أي عام ١٤م) ٦ ملايين، فيما وصل عدد السكان في القرن الثاني بعد الميلاد بين ٥ و ٦ مليون نسمة[٢].

ويتضح مما ذكرناه أن سورية كانت الشريط الساحلي لشرقي البحر المتوسط وبعمق يتجاوز المئة كيلومتر، ولكن عدد السكان (قد) لا يمثل الحقيقة، لأنه لا توجد أرقام موثوق بها حتى عن فترة القرن التاسع عشر والتي اعتمدت على عوائد الضرائب، فقد قدر العدد ما بين مليون و ١,٨٦٤,٠٠٠ نسمة، غير أن معظم تلك التقديرات قد تراوحت بين ١,٢٥٠,٠٠٠ و ١,٤٥٠,٠٠٠ ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، ارتفع الرقم إلى ما يربو على ٣,٥ ملايين نسمة[٣] فيما يذكر أحد المصادر عدد السكان عام ١٩٥٠ (٣.٣) ملايين نسمة[٤].

إن رقعة سورية تغيرت عبر التاريخ حتى أنها (كانت تشمل أحياناً ما بين النهرين وأرمينيا وبعض آسيا الصغرى وبعض بلاد العرب، وتضيق أحياناً عن هذه)[٥]، كما ورد اسم ميزبانة (ولاية) آسورستان في نقش بهيستون العائد للامبراطور الفارسي الأخميني داريوس في القرن السادس قبل الميلاد دالة على ما يشكل حالياً سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن، وفي عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) شاع اسم سوريا، وشملت دلالته المساحة التي شملتها تسمية أسورستان وأسسيريا في عهد الفرس الأخمينيين التي سادت بين القرن السابع ق.م حتى هزيمة داريوس الثالث أمام

---

(١) نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس مكتبة المشعل بيروت الطبعة السادسة ١٩٨١ ص٤٩٢.

(2) J. J. Van Nostrand (Roman Spain) in: Tenney Frank, ed ,an Economic Survey of Ancient Roman, 6vols (Baltimore, mad: John Hopkins University press 1930 - 1940) vol 3 , P148.

(3) Charles Philip issawi: The Economic History of the middle east, 1800 - 1914 (Chicago, III: University of Chicago Press 1966) P109.

(٤) د. غسان سلامة: المجتمع والدولة في المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٨٧ ص ١٦١.

(٥) يوسف الدبس: تاريخ سوريا الجزء الأول، المجلد الأول بيروت ١٨٩٣ ص٢.

الاسكندر ٣٣١ق.م، وقد يكون تقلص الدلالة الجغرافية لسوريا، واقتصاره على دلالة مصطلح (بلاد الشام)، أي باستثناء العراق الحالي من الدلالة الأقدم، ناجماً عن تراجع حدود سوريا السلوقية، أمام زحف الفرس الساسانيين ١٢١ق.م إلى غرب نهر الفرات.

أما في العهد البيزنطي فقد قسمت سوريا إدارياً إلى سوريا الأولى وعاصمتها أنطاكية، وتشمل اللاذقية وجبلة وحلب وقنسرين. وسوريا الثانية وعاصمتها أفامية، وتشمل حماه والرستن وشيزر وفينيقية الأولى عاصمتها صور وتشمل صيدا وبيروت وجبيل، وفينيقية الثانية عاصمتها حمص وتشمل دمشق ومنبج وتدمر، وإلى فلسطين أولى (قيصرية) وثانية (بيسان) وثالثة (البتراء) [١].

كما شهدت سوريا تقسيمات أخرى مثل سوريا المجوّفة: السهل بين جبل لبنان الغربي والجبل الشرقي المقابل له (أنتي لبنان)، وسوريا الداخلة: منطقة غرب نهر الفرات وفلسطين، وسوريا الخارجة: آشور وما بين النهرين[٢] وعند الفتح الإسلامي لسوريا في القرن السابع الميلادي (لم يكن يطلق الاسم إلا على القسم الغربي الأوسط من خارطة ديار الشام كما نعرفها، ويدخل في ذلك قسم من العراق)[٣]، وفي العهد العثماني تطابقت دلالة الاسم الجغرافية مع دلالة بلاد الشام، وفق يوسف الدبس (فضمت ولايات حلب ودمشق وبيروت ومتصرفين لبنان والقدس)[٤]، ولكن اسم سوريا في العصر العثماني أطلق على ولاية ضمت فقط (شام شريف وحماه وحوران ومعان) [٥] وهذه لا تشكل إلا جزءاً صغيراً من المساحة التي يذكر الدبس، واقتصرت منذ ١٩٤٦ على الجمهورية العربية السورية.

وفي القرن العشرين، وخاصة في النصف الأول منه، وضع مصطلح سوريا في أكثر من اتجاه يمكن إيراد ثلاثة منها.

منطقة الهلال الخصيب إضافة إلى قبرص، وهو ما يفترضه الحزب القومي السوري لمفهومه في الوحدة السورية (منطلقاً من جبال طوروس في الشمال الشرقي إلى قناة

---

[١] فؤاد أفرام البستاني: دائرة معارف البستاني الجزء الرابع عشر بيوت ١٩٨٣ ص٨١.
[٢] سعد سعدي: معجم الشرق الأوسط دار الجيل ـ بيروت ١٩٩٨ ص٢٣١.
[٣] د. عفيف بهنسي: الشام والحضارة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١ ص١٩-٢٢.
[٤] يوسف الدبس: تاريخ سوريا الجزء الثالث، المجلد الأول ص٣ مرجع سابق.
[٥] د. ذوقان قرقوط: الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٥ ص٥.

السويس والبحر الأحمر السوري (المتوسط) في الغرب شاملة جزيرة قبرص إلـى قـوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق، ويعبر عنه بلفظ الهلال الخصيب)[1]

مصطلح بلاد الشام الذي أطلقه الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن، ويشمل سـوريا وفلسطين والأردن ولبنان، وسمي سوريا الكبرى[2].

المشروع الفرنسي الذي يهدف إلى تشكيل سوريا الكبرى وفقه امتداداً لثقافـة فرنسـا واقتصادها مستندة في ذلك إلى عمق تاريخي لها في هذه المنطقة، كما قال مفكروها[3].

ونحن نرى أن سورية الطبيعية سميت ببلاد الشام وهي التي قامت إلى الغـرب مـن آسية ممتدة شرقي البحر المتوسط، من جبال طوروس شمالاً إلى صحراء سـيناء وخليـج العقبة جنوباً ومن الجزيرة والفرات وبادية الشام شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وتضم هذه الرقعة الآن الجمهورية العربية السورية ولبنان وفلسطين والأردن وكيليكيا. ويبدأ خط حدود بلاد الشام جنوباً من ميناء العقبة ثم يتجه نحو الشمال الغربي حتى يصل إلى رفح، وهـي آخر حدود بلاد الشام مع مصر، وعند الساحل من رفح حتى مدينة طرسوس (تقع الآن في تركيا وهي غير طرطوس السورية)، وينطلق خط الحدود الشرقي، من العقبة شمالاً حتى يصل إلى نهر الفرات عند مدينة الرحبة، ثم ينحرف ليصل إلى مرعش ومنها يتجه إلى طرسوس.

ويصل أقصى امتداد لهذه البلاد من الجنوب للشمال إلى ما يقارب ٨٥٠ كم، وعرضها حوالي ٣٥٠ كم، وطول ساحلها ٧٥٠ كم، ومساحتها الإجمالية حوالـي أربعمائـة ألـف كيلومتر مربع.

هذه الحدود التي رسمناها كانت تستعمل الآرامية ـــ السريانية في صدر المسيحية منـذ ألفي عام بالرغم من سعة الانتشار اليونانية لأنها كانت لغة الشعب، ولم تطردها إلا اللغـة العربية بعد الفتح الإسلامي، ولكنها لم تنطفئ تماماً لأنها لا تزال محكية في بعـض قـرى سورية، ولو بصيغة متغيرة كثيراً.

---

(١) أسد الأشقر: تاريخ سوريا الجزء الأول الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٨ ص٧٧.

(٢) عبد الله الحسين: مذكرات الملك عبد الله مقدمة وإشراف مصطفى خرسا القاهرة ص٢٢٠.

(٣) د. ذوقان قرقوط: الحركة الوطنية السورية مرجع سابق ص١٨٩.

وطالما أن السريان هم سكان سورية الأصليين وهم امتداد للآراميين الذين سكنوا هذه المنطقة منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وجاء ذكرهم قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام تقريباً، فلهم الفضل على إبقاء اللغة الآرامية وتطويرها على امتداد السنين فبقيت إلى الوقت الحالي، يتكلمها المسلم والمسيحي في أرجاء سورية.

وغير هذا وذاك، أعطت هذه اللغة الكثير لشقيقتها العربية فكان التزاوج في أحيان كثيرة كبير جداً حتى أن الكثير من الكلمات التي نتداولها أصلها سرياني، نلمس ذلك في أسماء المدن والقرى السورية، حتى أن نصف هذه الأسماء هي سريانية الأصل كما أن اللغة العامية التي نتكلمها في كل لحظة يصل تعدادها في بعض مناطق سورية إلى الثمانين بالمائة كلها سريانية الأصل، وقد ذكرنا في نهاية هذا الكتاب البعض من أسماء المدن والقرى السورية مع بعض النماذج من الكلمات العامية، حتى نضع القارئ في الصورة الصحيحة لما سنتناوله في هذا الكتاب وهذا ما يضفي على اسم سورية الصبغة السريانية لأنها لا زالت قائمة بيننا نلمس وقعها يومياً.

الهوية السورية

تجد الدلالة العلمية لتبلور الشعب السوري على أساس التفاعلات الحضارية، عراقة المنطقة جنساً وتراثاً. فمن ناحية الجنس فإن كل الدماء تمازجت في عروق بنيها، ومن ناحية التراث فإن كل إبداعات المنطقة تمثلتها الحضارة العربية، وعدت في مكوناتها. فالعرب المعاصرون يضربون بجذورهم في أعماق تاريخ كل قطر عربي، وهم الوارثون لكل ما أبدعه الإنسان ما بين المحيط والخليج منذ البدايات الأولى للاستيطان البشري والتحول للزراعة والعمران. وأصالة العرب لم تأت بحكم انتسابهم فقط إلى الجزيرة — خزان الشعوب منذ القدم — وإنما بسبب انصهار الغالبية الساحقة لأعرق شعوب المنطقة في الأمة حديثة التكوين.

وجاء بروز دور الأقليات (العرقية) الأصيلة في الحياة العربية إبداعاً وبطولة، وكان طبيعياً بحكم هذه العلاقة أن يأتي إبداع نخبة الأقليات ضمن السياق العام، وأن تمدهم الأمة بالثقة والدفء اللازمين لتمكينهم من البروز، وأن يحظى دورهم الإبداعي والنضالي بتقدير الأمة نخباً وجمهوراً، دون أن يعنى أحد بالسؤال عن نسبة (الدم) العربي في أمثال (طارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي من أبطال الأمس أو أحمد شوقي وعبد الحميد بن باديس من مبدعي العصر)[١] أو من أناس آخرين ساهموا في ابداعات المنطقة من أمثال ابن العبري ويحيى بن عدي والأخطل الشاعر الكبير وآل حنين في الترجمة وغيرهم وغيرهم الكثر[٢].

وقد عرّف ستولمان [٣] الخارطة الذهنية بأنها عبارة عن منطقة إقليم - جغرافية خزنت في ذهن الفرد، ويعتمد هذا التخزين على مقدار العملية البنائية والخبرات السابقة

---

(١) عوني فرسخ الأقليات في الوطن العربي: تراكمات الماضي وتحديات الحاضر واحتمالات المستقبل مجلة المستقبل العربي ــ بيروت العدد ١١٩ ١/١٩٨٩.

(٢) سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ــ عمان ١٩٩٧ خاصة الفصل الثالث (المؤثرات السريانية في الحضارة العربية والإسلامية) من صفحة ٥٣ إلى ٨١ مرجع سابق.

(3) T. P. Stolman : Mental Maps - Resources for Teaching and Learning (Sheffield: Geographical Association 1980) P3.

لدى ذلك الفرد، ويقصد بالعملية البنائية التدريس والتدريب الذي يتلقاه الفرد في حياته، وكذلك استعداده للتعلم وقدراته الذهنية، أما خبراته في رسم الخارطة واستخدامها لأغراض مختلفة، فيعتمدان على ممارسته لما تعلّمه وتدرب عليه سابقاً. يمكن أن يقوم الفرد برسم الخارطة المطلوبة منه على ورقة بيضاء ويعكس عليها إدراكه لجوانبها المختلفة أو أجزاء منها. وهي هنا تعبر عن شخصيته وخبرته وقيمه وانطباعاته وقدراته، ومن ناحية أخرى، فإن الخارطة الذهنية تهدف إلى فهم استخدام الإنسان للبيئة المحيطة [1]، وتزودنا بفرصة للاستخدام الأسلم للجغرافيا[2].

وهناك هدفان حيويان ينبغي أن يحفزا العمل في حقل دراسات المنطقة، ويوجها برامج هذا العمل وخططه وإجراءاته في مراكز إنتاج المعرفة الخاصة بكل منطقة، سواء أكانت هذه المراكز في داخل هذه المنطقة أم في خارجها، وهذان الهدفان هما:

توظيف المعرفة الخاصة بالمنطقة للارتقاء بإنسان هذه المنطقة في جميع وجوه حياته.

توظيف المعرفة الخاصة بالمناطق المختلفة في عملية التفاهم بين المناطق والشعوب والأمم المختلفة[3].

ولهذا تؤكد الملاحظة الدقيقة لأقوال البشر وأفعالهم أن كثيراً من أعمالهم ليس نتاجاً لمحض ما لديهم من قابليات وقصورات مادية وبيولوجية، فلو صح هذا لكانت عمليات التغاير الممكنة، ضمن ميدان محدد من القوى المادية والبيولوجية، عفوية. بيد أنه من المؤكد أنها لا تجيء، عفواً، فإن ضروب التغاير ضمن مختلف الجماعات الإنسانية التي لها حظ من الاستمرار التاريخي تنزع، دون شك، إلى التجمع حول معايير معينة. وتمكن البرهنة على أن هذه المعايير تتباين لدى الجماعات التي تتمتع باستمرارات تاريخية متباينة، وهذه الأنماط من أفعال البشر التي تميز الجماعات الإنسانية هي الأساس الذي يمكننا من التمييز البعد الثقافي للفعل واحتوائه.

---

[1] M. Douns: Maps and Mapping, in: L. S. Liben, A. H. Patterson and M. Newcombe, eds, Spatial Representation and Behavior across the life span: theory and application (new york: academic press 1981) P.97.

[2] Stolman, Ibid P35.

[3] عبد النبي اصطيف: عولمة دراسات المنطقة ــ مجلة المستقبل العربي ــ بيروت العدد ٢٣٣ ١٩٩٨/٧ ص٤١.

ولعله من الضروري أن يعالج (علم الإنسان) المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشري وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء الثقافات الإنسانية، ثم أن مناهج علم الآثار وعلم الإنسان الفيزيائي هي في أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات، فنجد مثلاً أن مرحلة علم الإنسان الفيزيائي التي تدور حول تطور البشر والحيوانات العليا هي في جوهرها بحث تاريخي، ثم أن إعادة التمييز في علم الإنسان الثقافي بين تاريخ الثقافة أو علم الأجناس البشرية، وبين علم الإنسان الاجتماعي تزداد رسوخاً، فتاريخ الثقافة وعلم الأجناس يدرسان الانتشار والهجرات والتغير الثقافي، أما علم الإنسان الاجتماعي فينصب على دراسة نماذج معينة من الثقافة والشخصية.[1]

الحضارة والثقافة

كانت من عادة ابن النفيس أنه إذا أراد شرح مسألة دقيقة أو تبيان قضية إشكالية فإنه يبدأ بالقول : لنقدم قبل الشرح والبيان مقدمات لا غنى عنها ثم يشرع في تفصيل دلالة المفردات والمصطلحات المتعلقة بهذه المسألة أو تلك القضية تمهيداً للخوض في الموضوع.

وعلى ذلك تعتبر سمات الثقافة وأنماطها، وهي طرز مسلكية متماثلة كأساليب اللباس وتأدية الشعائر الدينية، تجريدات من الدرجة الأولى يمكن بلوغها في صورة رئيسة من استقراء الملاحظة المباشرة. غير أن طول التجربة يدل على أن ضروباً مهمة من التنبؤ ما لم يكن هناك فهم منهجي لتنظيم الثقافة على مستوى (أكثر عمقاً)، وهذه الثقافة الضمنية تجريد من الدرجة الثانية، أو تركيب يستنبطه الملاحظ مباشرة. وبهذا الضرب من الثقافة تحاول وصف الكليات المسلكية، أي المقدمات أو القيم المفهومة ضمناً ــ وهي قطاع كلي من الثقافة لا يدركه نقلة الثقافة، أو هم يدركونه أقل إدراك في أية صورة منظمة. فالافتراضات اللاشعورية، التي يضعها ــ على نحو متميز ــ أفراد ينتمون لطبقة واحدة وبيئة واحدة، تؤلف مجموعة من مبادئ كبرى ــ أو مسائل مشتركة منضمنة في قطاع واسع من المحور الثقافي.

---

(1) Glyn E. Daniel: A Hundred years of Archaeology. G. Duckworth & co. London 1950 P22.

إن مفهوم الحضارة الذي يتخذ من الانكليزية اسم Civilization مشتق من اللفظ اللاتيني Civilis أي الانتماء إلى مجتمع، وفي معناه الحديث فإنه يشير إلى نظام اجتماعي معين يلازمه تقدم تكنولوجي وتعقيدات ثقافية تتسم بتنظيم هرمي، وهو معنى نقيس به مدى التقدم ليكون لدينا ما يمكن تسميته بمجتمع متحضر في مقابل مجتمع أقل تحضراً[١]. والتغير الحضاري تصحبه، ضرورة، ظاهرة التخلف الحضاري، وهي مظهر من مظاهر عدم التكيف والملائمة مع الوضع الجديد، بحيث يكون انفصام بين الواقع والسلوك، فتقوم الظواهر الاجتماعية الجديدة على أساس القيم القديمة[٢]، حيث يتعرض كل فرد في اي حضارة لعمليات التنشئة الاجتماعية، فيتشرب قيمها، ويتنسم طابعها، وفي الوقت نفسه فإن أي حضارة تقتصر في الغالب، وفي وقت معين، عن أن تمد أعضاءها بكل الإمكانيات التي يلائمون بها أنفسهم لكل الاحتمالات والظروف والمواقف، أو أن تعينهم، في كل حال، على إيجاد حلول لكل مشكلة ممكنة الحدوث[٣].

ويمكن النظر إلى تعريف الحضارة الذي قدمناه على أنه لا يفرق بين الحضارة والثقافة، بيد أن لفظ الحضارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اتخذ منحى أوسع، فقيل إن الحضارة هي قمة الإنجاز البشري، وهو معنى يتضمن أن الحضارة أشمل من الثقافة فتقتصر الثقافة على المجتمع أياً كان، أما الحضارة فتخص مسار البشرية برمتها، وهذا المسار، انثروبولوجيا، هو صراع بين الأسطورة والعقل منذ نشأة الحضارة.. ذلك أن الحضارة نشأت بابتداع الإنسان التكتيك الزراعي، وقد كان من جراء ذلك أن وعى الإنسان أنه قادر على التحكم في البيئة والطبيعة تحكماً عقلانياً.

وحيث أن هذا الوعي لم يكن مكتملاً فالتحكم أيضاً لم يكن عقلانياً تماماً، بل كان ممتزجاً بالتفكير الأسطوري ومن هنا نشأ الصراع بين العقل والأسطورة، وقد انعكس هذا الصراع على المجتمعات وعلى ثقافاتها وأصبحنا نقيس درجة التقدم الحضاري للبشرية، بدرجة عقلانيتها، وبالتالي نقيس درجة التقدم الثقافي لمجتمع معين بدرجة عقلانيته.

---

[١] د. منى أبو سنة: التحدي الحضاري للعالم الإسلامي صحيفة الأهالي-القاهرة ١٦ديسمبر١٩٩٨ ص٩.

[٢] د. محي الدين صابر و د. لويس كامل مليكه: البدو والبداوة مفاهيم ومناهج المكتبة العصرية ــ بيروت ١٩٨٦ ص١٦.

[3] Hallowell A. Irving: "Sociopsychological Aspects of Acculturation", R, Linton (ed) the Sciences of Man in The World Crisis , New York, colombia university press, 1945 P171.

الهوية هي من الألفاظ الفلسفية السريانية الأصل، بمعنى الوجود الجزئي المتغير تحت الحس، في مقابل الحقيقة والماهية المعقولتين. إن أبي يوسف يعقوب بن اسحق، المعروف بالكندي يصوغ من هذه اللفظة فعل يهوي، بمعنى يوجد هذا الوجود الخاص، ويسمي الله تعالى (مهوي الهويات عن ليس)، أي موجد الموجودات المتعينة. ومن قوله أن (الشيء يتهوى أيساً عن ليس بفعل المؤيس). وقد ظن بعض الباحثين غير العارفين بالسريانية أن الكندي اشتق لفظة الهوية (من ضمير الغائب المفرد هو) فصاغ منها تلك المشتقات.

والواقع ليس في الضمير المذكور ما يبرر استخراج هذه المعاني الضرورية الوجودية وليس من شك لمن يدرس الواقع الثقافي في بغداد العباسيين إذ ذاك، أن الكندي أخذ هذا اللفظ ومشتقاته من السريانية من فعل Hwo هوو ومعناه: صار ووجد Hwoyo وهوويو الصيرورة والوجود، ولا يستبعد أن يكون قد اتخذها من اللهجة الشرقية المائلة إلى الفتح Hwoyya هوية، فاستقام له اللفظ والمعنى، ووضحت مصادر الكندي، فبطلت أسباب استغراب أبو ريدة، ناشر رسائل الفيلسوف، لهذا الأسلوب العجيب والاشتقاقات المستهجنة، إذ نعى عليه، وردد النعي بعض من نقل عن أبي ريده أن الكندي (يسمح لنفسه التصرف كما يشاء بالصيغ العربية فيضيف أداة التعريف إلى الضمير الغائب (هو).. ومن لفظ (الهو) يشتق لفظ الهوية) ويضيف أبو ريدة (ولا نعرف من المترجمين، ولا من الفلاسفة، بعد الكندي، من يضع الاصطلاح ويستعمله على هذا النحو الفريد المدهش، والذي لو قرأه غير المتخصص، لاستهجنه أو لما فهم منه شيئاً) قلنا متى عرف السبب بطل العجب[1].

وفيما تخيل بعضهم لفظ الضمير هو أصلاً للهوية (تخيل غيرهم كذلك أداة الشرط) أصلاً للفظة الفلسفية (انية) و(آنية)، ولا يخفى أنها سريانية الأصل (اينويوثو aynoyutho) وقد عربت بشكل (اينية) كما في قاموس الحسن بن بهلول في القرن العاشر، وأحياناً بشكل (آنية) وأحياناً آنية ومعناها في الأصل كيفية الشيء ونوعيته. وقد وردت بين التعابير الفلسفية في المؤلفات السريانية، ومنها كتاب النفس لابن كيفا معاصر الكندي[2]

---

[1] د. فؤاد افرام البستاني: الكندي السريانية، المجلة البطريركية ــ دمشق العدد الثاني عشر السنة الثالثة تشرين الأول ١٩٦٣ ص٩١.

[2] البطريرك ماراغناطيوس يعقوب الثالث: الكندي والسريانية مطبعة الف باء ــ دمشق ١٩٦٣ ص١٢.

وهناك ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية، لشعب من الشعوب: الهوية الفردية، والهوية الجمعية، والهوية الوطنية (أو القومية)، والعلاقة بين هذه المستويات ليست قارة ولا ثابتة، بل هي في مد وجزر دائمين، يتغير مدى كل منهما اتساعاً وضيقاً، بحسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع، والتضامن واللا تضامن التي تحركها المصالح: المصالح الفردية والمصالح الجمعية والمصالح الوطنية والقومية[1].

والثقافة والهوية الثقافية والسيادة الثقافية مهددة كلها بما يمكن القول عنه أنه التكنولوجيا الحديثة التي يربط البعض بينها وبين الهوية الثقافية فيرى تناقضاً بها، أو يزاوجها بالثقافة المحلية، فيزيد دورها غموضاً وصعوبة، لهذا لا بد من التحدث عن ذلك بعض الشيء.

من المعروف أن أي تقدم في التكنولوجيا لا بد أن ينطوي على زيادة قدرة الإنسان على تحقيق تفرده والتعبير عن نفسه، فلماذا نفترض أن من الممكن أن ينشأ تضاد أو تعارض بين التكنولوجيا والهوية؟ أليست التكنولوجيا هي وسيلة تحقيق الهوية وطريقة التعبير عنها؟ أليست اللغة مثلاً تكنولوجيا التعبير؟ وهل خدمة اللغة وتطويرها، أي تطوير هذا النوع من تكنولوجيا الاتصال بين الناس، يمكن أن تكون إلا خادمة للهوية.

ويرى جلال أمين أن هناك فرصاً كامنة لهذا التضاد منذ قام الإنسان بصنع أولى أدواته وأكثرها بدائية، أي منذ أولى مراحل التطور التكنولوجي. فمنذ أن صنع الإنسان أولى أدواته الحجرية لتسهيل عملية الصيد، ضماناً لبقائه وتحقيقاً أكبر لذاته، كان هناك دائماً خطر في أن تستبد به هذه الأدوات نفسها وتتحول إلى أداة لقهره بدلاً من أن تكون أداة لتحريره. إن القول الشهير بأن (الأداة هي نفسها الرسالة **The Medium is The Massage** ينطبق في الحقيقة على أكثر صور التكنولوجية بدائية كما ينطبق على أكثرها تطوراً. وهو قول لا يعني فقط أن طبيعة التكنولوجيا المستخدمة تؤثر تأثيراً حاسماً في طبيعة العمل الذي تستخدم لتحقيقه، بل هو يعني أيضاً، على الأقل أن التكنولوجيا يمكن أن تتحول بكل سهولة من أداة لخدمة الإنسان إلى أداة لقهره.[2]

---

(1) محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية مجلة المستقبل العربي-بيروت العدد٢٢٨ ٢/١٩٩٨ ص١٤.

(2) جلال أمين: العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث مجلة المستقبل العربي ــ بيروت العدد ٢٣٤ ٨/١٩٩٨ ص٥٨.

دعونا نقول إن القلق المتزايد داخل المجتمعات المتقدمة اقتصادياً من التهديد الذي تتعرض له بعض أنواع الحيوانات والطيور التي يهددها التقدم التكنولوجي بالانقراض، لا يقابله قلق لما يحدث لثقافات الأمم المختلفة من وراء هذا التقدم التكنولوجي نفسه، مع أن هذه الثقافات مهددة هي أيضاً بالانقراض.

ولا أريد مما ذكرته الوصول إلى القول إن ما يحدث للهوية الثقافية للأمة لا ينطوي بالضرورة على موقف متخلف كما يظن البعض، ولا يتضمن بالضرورة دعوة إلى رفض لكل تقدم تكنولوجي والعودة إلى ماض ذهبي أو التمسك بحاضر بغيض. لا أحد ينكر أن للتطور التكنولوجي دائماً دوراً تحريرياً، ولكن ليس من الحكمة أن نغفل عن جانبه القهري، وبخاصة في ما ينطوي عليه المجتمع التكنولوجي المتقدم.

كما لا يمكن القول بأي حال من الأحوال إن قضية الخطر الذي تتعرض له الهوية الثقافية هي قضية غزو ثقافة لثقافة، أي فرض أمة لثقافتها على أمة أخرى. إن في هذا جانباً من الحقيقة، ولكن هناك جانباً آخر لابد من إبرازه. ليس هناك خطأ في القول بأن الهوية الثقافية السورية تتعرض لغزو من الثقافة الغربية أو الأمريكية، أو في القول بأن نمط حياتنا وسلوكنا وعاداتنا في المأكل والملبس والعلاقات الاجتماعية وطرق قضاء أوقات الفراغ إلخ.. تتعرض كلها للغزو أو القهر من جانب نمط حياة أمة أو أمم أخرى، ولكن المرء يلاحظ أن هذا الغزو أو القهر له سمة خاصة في ظل المجتمع التكنولوجي الحديث، وأن غزو هذه الثقافة الأجنبية إذ يتم في عصر التكنولوجيا الحديث يختلف عن غيره من صور الغزو الثقافي التي عرفها تاريخ الإنسان من قبل، وهو اختلاف يستحق التأمل ولا يجوز المرور عليه مرور الكرام.

ولا يكتفي مجتمع ما بما اجتمعت له من وسائل حضارية دون أن يمد بصره إلى ما وراء ذلك من إمكانيات حضارية أخرى، وقد مررت الشعوب، حتى في أولياتها أن تتصور عوالم أخرى خارج عالمها، في صور شديدة الاختلاف، فهي أحياناً مبالغة في القدرة والقوة والمهارة، وهي أحياناً، إمعان في الضعف والتخلف والتأخر.. مما يشير إلى أن الإنسان يدرك دائماً أن هناك أنماطاً حضارية أخرى ممكنة من الوسائل الحضارية. ومثل هذا

الموقف هو، على أي حال، تهيئة واستعداد للدخول في علاقات واتصالات حضارية خارجية مهما كانت نتيجة مثل هذه التجربة.[1]

سيادة الهوية الثقافية

هناك من يقول أن تعاريف الثقافة قد وصل إلى حدود المائتين، وهو ما يؤكد أننا بصدد حقل يحيطه الغموض، على أنني لم أقرأ كتاباً أو مقالاً عن الثقافة إلا وأصر كاتبه على تعريف الثقافة حتى يعرف القارئ عم يتحدث الكاتب، ولما كان لابد مما ليس منه فإنني ألتزم بتعريف محمد عابد الجابري الذي يقول به (الثقافة ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. وبعبارة أخرى، أن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لاينبغي أن يأمل)[2].

أما السيادة الثقافية فهي تنتمي فيما تنتميه إلى كيان الدولة الوطنية وسيادته، وقد ظلت الثقافة الوطنية تنهل أسباب سيادتها وتجددها من مصدرين رئيسين تقليديين: التربية والتكوين معبراً عنهما في الممارسة من خلال مؤسستين: الأسرة والمدرسة، فالأولى أول وأهم المصانع الاجتماعية التي تنتج الوجدان الثقافي الوطني، بواسطة شبكة القيم التي توزعها ــ من خلال التربية ــ على سائر أفرادها، وتلقنهم إياها بوصفها الآداب العامة الواجب احترامها، والمقدسات التي يتعين التزام الإيمان بها. وكما يتلقى الطفل ــ في هذه المؤسسة التكوينية من مؤسسات الإنتاج الاجتماعي ــ لغته، ومبادئ عقيدته، والقوالب الأخلاقية العامة والعليا سلوكه، كذلك يتلقى بعضاً من المبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعي: أي هوية الجماعة الوطنية التي ينتمي إليها.

---

(1) محي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع، سرس الليان مركز تنمية المجتمع في العالم العربي ١٩٦٢ ص٧٠-٧٢.

(2) محمد عابد لجابري: لعولمة ولهوية لثقافية، مجلة لمستقبل لعربي رقم ٢٢٨ ١٩٩٨/٢ ص١٤ مرجع سابق.

أما الثانية وهي المدرسة فتنفرد بكونها تنتقل بوعيه من حـــــدود الجماعـــة الطبيعيـــة (أي الأسرة) إلى رحاب الجماعة الوطنية. وعند هذه العتبة بالذات تؤدي المدرسة وظيفـــة إنتاج ثقافة وطنية أو قل أساسيات تلك الثقافة، إن من خلال توحيد الإدراك ومركزته علـــى برنامج تكوين عام على صعيد الوطن برمته، أو من خلال بث وتكريس جملة من المبـــادئ التي تؤسس لقيام وعي بالأنا الجمعي (الوطني)[1].

والهوية معناها في الأساس التفرد، والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي بكل ما يتضمنـــه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة... كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهزاً ونهائياً، هي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش، وإمـــا في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلعاتـــهم، وأيضـــاً باحتكاكها سلباً وإيجاباً مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير متبدل.

وتتحرك الهوية الثقافية على ثلاث دوائر متداخلة ذات مركز واحد:

فالفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفـــة أو جماعـــة مدنيـــة (حزبـــاً أو نقابة... إلخ) هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة، عبارة عن (أنـــا) لـــها (آخـــر) داخـــل الجماعة نفسها بوصفها ليست إياه.

والجماعات داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها (أنا) خاصة بها،و(آخر) من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه.

والشيء نفسه يقال بالنسبة إلى الأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى ، غـــير أنـــها أكـــثر تجريداً، وأوسع نطاقاً وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف.

إن العادات والسلوك والوسائل المادية التي تقدمها الحضارة يتوقـــف بقاؤهـــا علـــى مقدرتها على الاستمرار في إشباع تلك الحاجات، وهي حيـــن لا تفعـــل، يكـــون التغيـــير ضرورة اجتماعية، فلكل جيل متطلبات ومستحدثات، وبعض الوسائل أكثر فعالية في إشباع الحاجات الاجتماعية، سواء من الناحية الكمية أو الكيفية من البعض الآخر[2].

---

[1] عبد الإله بلقزيز: العولمة والهوية الثقافية ــ عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة مجلة المستقبل العربـــي ــ بيروت العدد ٢٢٩ ١٩٩٨/٣ ص٩٤.

[2] Malinoweski Branislow: Dynamics of Culture Change, New York, Yale university 1954, Chap. VII.

ولقد كشفت دراسات هـ. أ. مري عن عوامل الحركة للإدراك عند الفرد أنه ليس في استطاعة أي شخص أن يسجل شيئاً عن نفسه أو عن غيره دون أن تصبغه المظاهر اللاشعورية والشعورية الذاتية صبغاً قوياً وتذهب به مع التحيز والهوى. كما اننا لا نجد الطمأنينة في العدد، لأن الذين يتلقون تدريبهم في ثقافة أو مدرسة ما لا يستطيع الواحد منهم أن يكون كفاء بوزن عمل الآخر.[1]

الشخصية والعقلية السورية

يمكن القول إن استكشاف الإنسان السوري هو استكشاف للصورة المعاصرة لهذا الطابع الخاص للذات السورية، وتفسيرها، هو رؤية وصفية وتسجيلية وتحليلية للفرد السوري والجماعة السورية والتكوين الطبقي السوري.

إن استكشاف الإنسان السوري هو استكشاف لسيكولوجية كائن متميز يعيش في ظروف حضارية مختلفة عن الظروف التي يعيش فيها غيره، وفهم لعلاقات هذا الإنسان بغيره من الناس في مجتمعه، علاقاته بالدولة كتنظيم وتشريع، وعلاقاته الإنسانية والاقتصادية والبيولوجية. وليس جديداً أن نؤكد أن الوصول إلى فهم هذه العلاقات والظواهر ضرورة حيوية لإنسان العالم، فكل فهم جديد للإنسان يثري التراث العالمي الإنساني بشكل أفضل وأثرى.

والبعض يعتبر أن الإنسان السوري مجهول رائع، وهذا المجهول العظيم لم يكن باقياً في انتظار من يستكشفه، بل كان واقعه من يتحرك بلا ملل كما كان هذا الواقع أيضاً يفرض نفسه في صور تسجيلية تحفظه وتبقي عليه.

وأهم الصور التسجيلية للإنسان السوري هي فنه الشعبي: أزياؤه وأساطيره، فكاهاته، ومواويله، بكائياته وتصويره، ففي الفن الشعبي تبقى الملامح المميزة للإنسان السوري وتشرق، دون ما ادعاء بأن هذا الطور تحليل علمي لنصوص شعبية، إذ هي تستقرئ انطباعات عامة فحسب. ونلاحظ أن الطابع الخاص لتقدير علاقات الصداقة وعلاقات الرحم طابع نراه في الملاحم وحتى في الأساطير.

---

(1) Clyde Kluckhohn, Henrry A. Murray, and David m. Schneider eds.: Personality in nature, Society, and culture. (2nd ed.) Alfred A. Knoph, New York 1952 P191.

وكل حضارة وكل نهضة وكل تحول أصيل في حياة الشعوب يرتد إلى أصليين من أصول الحياة. أما الأول فهو الفكر الذي يصور الغايات التي تحدى إليها الركائب ومنه تنبع القوة المحركة، وإليه ترجع الآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية التي تمهد طرقاً كانت وعرة من قبل، أو كانت غير مطروقة، فمذاهب العلم الحديث في بناء المادة وطبيعة الطاقة، والتطور العضوي والآراء الاجتماعية الحديثة في نظم السياسة والاقتصاد والاجتماع، هي التي أفرغت عالمنا الحديث في قالبه المعهود، وهي جميعاً صدرت أولاً من الذهن الإنساني فكراً كالشهاب، ثم لم تلبث أن تغلغلت في حياة الناس كل يوم. وأما الثاني فهو البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها الناس ـ فكل ما يحدث في هذه البيئة يعتبر أصيلاً فيها، من أساليب الصناعة والزراعة والحذق في استغلال موارد الطبيعة، يغير الأحوال التي يعيش فيها الناس، فيفضي بعد زمن طويل أو قصير إلى تغيير في آرائهم وأفكارهم ونظرتهم إلى الكون والحياة[١].

إن أهم أساس في تكوين الأمة هو الهوية الثقافية من حيث تفسيرها للكون وتنظيمه للحياة على الأرض، واللغة التي تعبر عن الفكر وعن تفاعله مع نفسية الناس الذين يتبنون هذا الفكر، وهذين العاملين هما عماد الشخصية حيث رابطة الفكر واللغة بدلاً من رابطة العرق واللون والجنس وغير ذلك، وهكذا برزت الشخصية السورية.

وكانت هذه الشخصية تتحدى بمدى توافق سلوك الفرد السوري مع شعاراته ومبادئه، وكذلك فإن شخصيته تتكون من تفاعل نفسية العامة مع فكره واللغة التي تعبر عن هذا التفاعل، وما الحضارة والثقافة إلا نتاج لهذا التفاعل وهذا التعبير.

ولتحديد معالم الشخصية السورية لا بد من فهم النفسية السورية بعد أن مررنا على الهوية الثقافية لهذا البلد.

لقد آمن الفرد السوري أن الطعام والشراب والمتطلبات المادية في الدنيا وسيلة للحيلة، وأن العقيدة دستور الحياة وسبيل الخلود، وأن الشغل الشاغل للإنسان ليس الطعام بل معرفة الكون والاستفادة من هذه المعرفة، فهو لهذا يؤمن بالوفاء بالمبدأ والاستماتة في سبيله،

---

(١) فؤاد صروف: آفاق لا تحد، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٨ ص٣٢.

ولهذا كان يؤمن بوجود إله رغم أنه كان يعبد الأصنام التي كان يعتبرها وسيلة للتقرب من هذا الإله. وكان في الأصل محب للسلام ومحب للعمل والتجارة والفن، كما أنه منفتح على العالم والحضارات المختلفة، وقادر على التفاعل مع الثقافات الأخرى، فقد استطاع نقل علوم من سبقه وهضمها وتطويرها والإضافة إليها مبدعاً مما أحدث أثراً فيمن جاء بعده.

وعرف عن المواطن السوري الإيثار والعفة والإباء والنخوة والشهامة والزهد والتقشف والصبر وقوة الاحتمال والغيرية والاعتماد على العمل والكفاح وعلى الواقعية بدل الاسترسال في الأحلام والأوهام.

واستطاعت الشخصية السورية الجمع بين الواقع والمجرد وأن تسيطر على الحياة كلها فتغدو هي الهدف والوسيلة والعقيدة، وبين الحياة الروحية التي تنمي الدافع الذاتي والضمير الإنساني.

ويأتي ذلك نتيجة العقلية السورية القائمة على المثل الأخلاقية الناجمة عن التأمل، وهي وحدها القادرة على إيجاد نشاط حر، أعني نشاطاً خطط بتصميم مرتب للهدف منه، والواقع يؤثر في الدافع بنفس النسبة التي يمزج فيها بين المثل وبين عالم الحياة اليومية، لكن النفس الإنسانية تعمل حينئذ في التغير إلى ما هو أدنى.

ومن الملاحظ أن الأحداث التي تنتج نتائج عملية فينا هي أحداث تشكلها عقليتنا وتعمل فيها، وهذه العقلية لها طابع خاص، وعلى هذا الطابع تتوقف طبيعة الأحكام التقويمية التي تحكم علاقتنا بالوقائع الملموسة.

ويوجد هذا الطابع عادة في الأفكار المتعقلة التي يخرجها إلى الوجود تأملنا في الواقع، فإذا اختفت هذه الأفكار لم يترك فراغ، فيه (الأحداث في ذاتها) تؤثر فينا، لكن السيطرة على عقليتنا تنتقل حينئذ إلى الآراء والمشاعر التي كانت تحت سيطرة أفكارنا متعقلة.

إن الغابة العذراء إذا قطعت، حلت خمائل الشجيرات محل الأشجار السامقة، وهكذا أيضاً معتقداتنا الكبرى إذا حطمت حلت عقائد صغرى تقوم على نحو أحط مما كانت تقوم به المعتقدات الكبرى.

وفي الوقت الذي نتخلى به عن المثل الأخلاقية التي تصاحب حماستنا للواقع، فإن قدرتنا العملية لا تتحسن، بل تتضاءل. فليس من شأن ذلك أن يجعل الإنسان المعاصر ملاحظاً بارداً وحاسباً كما يظن في نفسه، لأنه خاضع لتأثير آراء وانفعالات تنشئها الوقائع في نفسه، ومن دون وعي تراه يمزج بما هو من عمل عقله كثيراً مما هو انفعالي حتى أن الواحد ليفسد الآخر. وفي نطاق هذه الدائرة تتحرك أحكام المجتمع ودوافعه، سواء عالجنا أكبر المسائل أو أصغرها، والأفراد والأمم على السواء يتعاملون بالقيم الحقيقية والخيالية دون تمييز، وهذا الخليط نفسه من الواقعي وغير الواقعي، من التفكير الرزين والحماسة لما لا معنى له ــ هو الذي يجعل عقلية الإنسان الحديث محيرة.

وإذا أمعنا النظر إلى ما حل في العقلية السورية من انحلال بالاستناد إلى النظرة الكونية وما نجم عنها، لرأينا أن التفاؤل الحقيقي قد ولى عنا دون أن نشعر. أننا لسنا جنساً أصابه الضعف وأنتابه الأنحلال بسبب الإفراط في التنعم بالحياة فأصبح في حاجة إلى التماسك لإظهار القوة والمثالية وسط عواصف التاريخ، لكن على الرغم من أننا احتفظنا بقوتنا في معظم مرافق الحياة، فإننا روحياً مصابون بالهزال، ونظرتنا في الحياة بكل ما يتوقف عليها قد انحط مستواها سواء للأفراد والجماعات. والقوى العليا للإرادة والتأثير صارت عاجزة فينا، لأن التفاؤل الذي كان يجب عليها أن تستمد منه قوتها قد شاع فيه التشاؤم عن غير شعور.

اللغة السريانية السورية

يعتز السريان بلغتهم لأنها من أقدم اللغات القديمة التي لا زالت متداولة ــ ولو على نطاق ضيق ــ بها تكلم المسيح وأقام السوريون حضارتهم في كنفها، ولا زالت كلماتها متداولة في حياتنا اليومية من خلال تداولها في أسماء المدن والقرى ولسان العامة، أومن خلال اللغة العربية في بعض كلماتها.

فاللغة هي القومية، أو القومية هي اللغة، بدأت في المجتمع الإنساني دائرة صغيرة في صورة الأسرة، ثم اتسعت فشملت القبيلة، ثم زاد اتساعها فضمت القرية أو المدينة، وهكذا حتى تكوّن منها في العصر الحديث ما يسمى باللغة المشتركة في شعب من الشعوب. فاتساع رقعة اللغة عملية حتمية يؤكدها لنا ما نشهده الآن من سعة انتشار بعض اللغات حتى لتكاد تطيف بمعظم أنحاء العالم.[(١)]

واللغة، ليست كما قد يظن لأول وهلة، مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار أو مجرد رموز لما يدور في الأذهان، بل هي تلك الوسيلة التي امتزجت بعقولنا ونفوسنا، والتي سما بها الإنسان فوق الحيوان، وندين لها بتلك القوة التي ساعدتنا على التعاون مع رفاقنا، ومنحتنا السيطرة على مخلوقات أقوى منا جسماً.

وللوصول إلى فهم للغة السريانية ــ العربية، علينا أن نلقي نظرة على تطور اللغة ومكانتها من الفكر حتى نستوعب ما تضمنته اللغة السريانية ــ العربية من ثروة فكرية حقيقية ثرية أبقتها صامدة إلى اليوم.

تطور اللغة عند الإنسان

حين وجد الإنسان، وجد معه عقله المفكر، وفي الوقت الذي بدأ في استعمال هذا العقل، بدأ البحث عن وسيلة يعبر بها عما يجول في خاطره.. فاستعمل في ذلك الإشارة، ثم الصورة ــ مرسومة أو منقوشة ــ كما تدل على ذلك الآثار التي تركها منذ آلاف السنين القدماء من أجدادنا.

---

(١) د. إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص٨.

على أن اللغة ليست كتابة فقط، فالإنسان لا يحتاج إلى اللغة المكتوبة إلا في ظروف معينة تفرضها عليه ظروف خاصة.. كأن يود أن يحفظ أفكاره ليطلع عليها من يأتي بعد موته، أو ينقلها إلى إنسان آخر يعيش بعيداً عنه، لا بد وأن تكون هنالك مرحلة لغوية أخرى أهم من هذه قد مر بها تاريخ الإنسان اللغوي. فما هي هذه المرحلة؟ وما هي أهم خواصها؟.. إنها بلا شك مرحلة الصوت والنطق والتعبير، وهي أساس لغة التخاطب والتفاهم. والصوت كما هو معروف، ينطلق من الفم عن اهتزازات تحدث في حبال خاصة في الحلق.. تعرف طبياً باسم (الحبال الصوتية)، وهذه الاهتزازات تحدث بأمر أو إشارة خاصة ترسلها منطقة معينة في الدماغ حسب الحاجة، فيتحرك بموجبها اللسان والشفتان في صوت معبر ناطق.. وأول صوت انطلق من فم الإنسان كان صيحة، أراد بها التعبير عن شعور خاص خالجه.

ويصعب على الباحثين اليوم تحديد اسم أول لغة تكلم بها الإنسان، أو العثور على نصوص منها، ولهذا سيظل أصل اللغة وتطورها دوماً مجالاً واسعاً لمختلف الاجتهادات الفكرية وستظهر تكهنات تنم عن براعة في التفكير، لكن تأييدها بالحقائق لن يكون ممكناً أبداً. على أنه يمكننا القول إن كل شيء يبدأ صغيراً، ثم يكبر، وهكذا بدأت كل لغة أساساً كلهجة محلية متفرعة عن لغة رئيسة كانت قد تفرعت أساساً عن لهجة ما للغة رئيسة. وتحول اللهجة المحلية إلى لغة رئيسة كان يتم دائماً تحت ظروف كثيرة وعوامل عدة، أهمها السياسية، ثم يليها الاجتماعية والمعيشية، كما حصل في اللغة الهولندية التي كانت تعتبر حتى القرن الخامس عشر لهجة ألمانية محلية ثم فرضت كلغة رسمية لسكان هولندا، لها قواعدها الخاصة وأصول نموها المتنوعة.

والحال الذي يجمع أبناء الأمة العربية في حديثهم هي اللغة الفصحى، وإلا فإن العربي الذي يسكن في شمال أفريقيا لا يفقه شيئاً من لهجة أخيه العربي في لبنان أو العراق، والعربي الذي في ربوع نجد أو الحجاز لا يفهم أخيه الذي يسكن أعالي الصعيد وغير ذلك من الأماكن.

وكانت لغة الإنسان في كل عصور التاريخ التي مرت بها الإنسانية، تمر في ظروف كالتي تعيشها اليوم، لغات رئيسة تتفرع عنها لهجات محلية، ثم تتحول اللهجات إلى لغات، إلى حلقة، متصلة ذات قاعدة واحدة.

ولنأخذ مثالاً على ذلك اللغة الهندوجرمانية التي يعتبرها علماء اللغة أساساً لمعظم لغات شعوب أوربا وآسيا وأمريكا، لم تكن أصلاً ومنشأ سوى لغة ذات لهجات قليلة مختلفة تحدثت بها القبائل الجرمانية التي سكنت وسط أوربا ثم غزتها من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها حتى وصلت إلى شمال أفريقيا في بعض غزواتها، وكانت كل فئة من هذه القبائل الجرمانية الغازية المهاجرة والراحلة تتخذ لها لهجة محلية في موطنها الجديد الذي غزته، وبمرور الزمن وفعل عوامله الكثيرة المختلفة وتأثيرها، أخذ الاختلاف بين هذه اللهجات المحلية والجرمانية الأم يشتد ويقوى، حتى تحول الكثير من تلك اللهجات إلى لغات رئيسة لها نحوها وقواعدها ولهجاتها المختلفة والمنوعة.

كما كانت هناك جماعة من القبائل الجرمانية تدعى الانجلو سكسون تسكن على نهر الألبة في الشمال مما يعرف اليوم بألمانيا، ثم قامت هذه الجماعة من القبائل في القرن الخامس الميلادي بغزو بريطانيا وإجلاء سكانها الأوائل، واتخذت تلك الجماعة الجرمانية لهجة لها لم تكن بادئ ذي بدء سوى لهجة جرمانية محلية، تحولت بمرور الزمن وتأثير عوامله السياسية والاجتماعية إلى لغة رئيسة كبرى تحتل اليوم مكانة بارزة بين جميع لغات العالم ألا وهي اللغة الإنكليزية.

إن جميع اللغات، مجتمعة ومنفصلة، إنما هي ذات أصل واحد، نشأت كلهجات محلية ثم تطورت بمرور الزمن وتمخض عنها أو تحولت بذاتها إلى لغات، ووضع لها علماؤها وفقهاؤها قواعد وأصولاً، حماية لها ومحافظة عليها، ولكن سنة التطور في الحياة جعلت هذه اللغات تتمرد أحياناً على ما وضع لها العلماء من أصول فكانت دائمة التغير والتطور في حلقات متشابكة متماسكة لا نهاية لها ولكنها ذات قاعدة صلبة.

اللغة والحضارة

كل ما في الدنيا من لغات وكل ما نطق وينطق به البشر ما هو إلا ترجمة لما يتمخض عنه فكر الإنسان، بل هو الفكر الإنساني ذاته في شكل كلمات وأقوال.. ولنا أن نتصور مدى التأخر والانحطاط الذي يحل بالبشرية لولا نعمة اللغة التي وهبنا إياها الخالق، فباللغة وحدها، في جميع صورها وأشكالها أمكن نقل المعرفة كاملة غير منقوصة من جيل إلى جيل، وبفضل اللغة يستطيع بعض الناس نقل أفكار واضحة عن أوضاع ومشاكل خاصة

مرت بهم إلى البعض الآخر مع ما ينبغي اتخاذه من مسلك إزاء تلك الأمور، وبهذا يـزداد حجم التراث الإنساني الثقافي والاجتماعي والفكري.

ويمكن القول أن اللغة، من حيث هي أداة للاتصال، لعبت أهم أدوارها في بناء التراث البشري الاجتماعي، فهي التي تساعد على نقل الأفكار بدقة وسهولة، ولولا قيامـها بـهذا الدور لما استطاعت الحضارة كما نعرفها أن تظهر إلى الوجود.

ومع أن كلمة (الحضارة) ظهرت لأول مرة عام ١٧٥٧ من قبل المركيز دي مـيرابو في كتاب له، فإنه في كتابه اللاحق (مقال في الحضارة) وضح فيه هـذا المفـهوم قـائلاً: ((إن حضارة شعب ما هي رقة طباعه، وعمرانه، وتهذيبه ومعارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة، ويفسح المجال لقانون التفصيلات... إن الحضـارة لا تفعـل شـيئاً للمجتمع ما لم تمنحه جوهر الفضيلة وشكلها، فمن صلب المجتمعات التي هذبت حواشـيها جميع العناصر التي عددناها آنفاً ينبثق مفهوم الإنسانية)).[١]

وفي سبيل الوصول إلى هذا المفهوم في تعامل الإرادة وارتباط المجتمع، لا بـد مـن وسائل للتفاهم والتواصل، وأهم هذه الوسائل اثنتان: اللغة والكتابة، و(لسنا نحتاج إلى وافـر بيان لنبرهن على كون اللغة صورة من صور الحضارة، فإن أحدنا لا يستطيع أن يتصـور أية من الحضارات التاريخية المعروفة كالهندية أو اليونانية أو العربية أو الفرنسية بـدون أن يتصور معها اللغة أو اللغات التي عبرت عنها، واللغة تعبر عن الحضارة من وجـهتين رئيسيتين: المفردات والتراكيب، فالمفردات تدل على مدى سعة خبرات المجتمع وعمقـها، وبالتالي على نوع الحضارة التي يتميز بها. فحيثما تكون الخبرات محدودة، بحكـم غلبـة الطبيعة الجغرافية أو التخلف الاقتصادي أو العلمي أو سواه، تأتي مفردات اللغة محـدودة المعاني ضيقة الدلالة. والحضارة المعنية بالأشياء المحسوسة تكون لغتها فقـيرة بالألفـاظ المعبرة عن الشؤون الفكرية والروحية)[٢].

ومن هذا يتبين أن ما عناه غالبية من استخدموا كلمة الحضارة كان مزيجاً من الصفات الروحية والخلقية التي تحققت على الأقل بصورة جزئية في حياة الكائنات البشـرية فـي المجتمع، وكان من تلك الصفات الأدب واللباقة والنزاهة والرقة والاعتدال وضبط النفـس عند الكلام وفي السلوك وفي الفكر أيضاً.

---

[١] جون نيف: الأسس الثقافية للحضارة الصناعية ترجمة د. محمود زايد دار الثقافة -بيروت ١٩٦٢ ص١٢٨.
[٢] قسطنطين زريق: في معركةالحضارة ، دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤ ص٩٧.

إن الكتابة تعتبر أساساً من أسس التحضر وشرطاً من شروطه، وأنها تتخذ دليلاً من الأدلة على انتقال المجتمع من مرحلة ما قبل التأريخ البدائية إلى مراحل التأريخ الحضارية. ولا عجب في هذا، فالكتابة تصل بين أفراد المجتمع، وتربط المجتمع بسواه من المجتمعات وتسهل التبادل والتعامل، وتسمح بإقامة حكم وإدارة منتظمين. بل إن لها آثاراً أجلّ من ذلك: إنها تيسر سبل انضباط الفكر وتفتحه ونموه، وتحفظ التراث وتتيح انتقاله من جيل إلى جيل وتراكمه عبر الأجيال. ومن هنا كان فضل الشعوب السامية في تبكيرهم إلى ابتداع الأساليب الكتابية، والفضل الضخم الخاص الذي كان للفينيقيين في ابتداع الحرف وفي نشره في العالم القديم، وفضل الآراميين في حمله إلى أقاصي الشرق، ذلك أنه مهما تكن الكلمة أو الفكرة مهمة، فإنها لا تتجسد، وبالتالي لا تكتمل، إلا بالحرف، وبدونه تظل مائعة غامضة رجراجة، ولكل حضارة نوع حروفها وأسلوب كتابتها.

والنزعات الاجتماعية التي تضم المشاركة الوجدانية والاستهواء والتقليد، تتخذ مع الإنسان صورة أرقى وأسمى من مجرد غريزة يشركه فيها بعض الأنواع الراقية من الحيوان، ويتحقق ذلك عن طريق اللغة التي يتميز بها النوع الإنساني، فلا يكون الانسجام بين أفراد الجماعة تاماً وشاملاً إلا عن هذا الطريق. فالمتعة الوجدانية التي يحس بها المرء العارف باللغة السريانية أو العربية، أرقى وأسمى من تلك التي قد تكون لدى من يجهل هذه اللغة أو تلك. وإعجاب المرء بآراء غيره يصحبه عادة تعبيرات ساحرة أخّاذة تصدر من صاحب هذه الآراء.

إن اللغة أساس مهم للحياة الاجتماعية أو ضرورة من أهم ضروراتها، لأنها أساس لوجود التواصل في هذه الحياة وأساس لتوطيد سبل التعايش فيها، فهي وسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وأحاسيسه ومواقفه، وطريقة إلى تصريف شؤون عيشه وإرضاء غريزة الاجتماع لديه[1]، ومهما بلغ ما يحصله الإنسان من مظاهر حضارية، من علوم ومعارف وطرق ووسائل مادية، فإنه يشعر في قرارة نفسه بأنه يعتمد اعتماداً كلياً على ما لديه من قدرة لغوية لتحقيق مآربه[2].

إذا كانت اللغة المكتوبة هي التي تحفظ للأجيال المتعاقبة التراث الفكري للأمة والإنسانية، وإذا كانت بذلك هي وعاء حضارياً للمضامين الحسية والفنية والفكرية والعلمية

---

(1) د. أحمد محمد معتوق: الحصيلة اللغوية–أهميتها مصادرها وسائل تنميتها–سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٢ص٥٤.

(2) روي س. هجمان: اللغة والحياة والطبيعة البشرية ترجمة د. داود حلمي أحمد السيد جامعة الكويت–الكويت ١٩٨٩ص ١٥.

للتراث الحضاري للأمة ماضياً ومستقبلاً، فإن اللغة هي التي تحدد مستوى رقي الفعل المادي وبالتالي هي مقياس رقي المجتمع ونهضته وأن الحديث والكتابة باللغة السريانية يعني التفكير من قاعدة الفكر السوري.

سامية ... آرامية ... سريانية

لا ينكر أن الشعب السوري عامة كان شعباً واحداً هو (الشعب السرياني)، وقد اختلط به من العناصر المختلفة مدى الفتوحات والأجيال مالا يحصى عده، إلا أنها جميعاً كانت تنصهر في بوتقته المتأججة لا تفكك شيئاً من وحدته الوثيقة، إنما تزيده تماسكاً ومناعة وغنى.

ولكن تلك الأمة السريانية العظيمة، وإن أفسدت الفتوحات لغتها القديمة النبيلة، فانقلبت عند أكثر أبنائها إلى لهجات سريانية مختلفة، وأن قضمت السياسة الغاشمة أجزاء مهمة من أطرافها فأضعفتها، هي هي إلى اليوم حية في اسمها (سوريا) رغم تحريف الأعاجم له، حية في علومها التي كانت قبل أن توجد علوم في اليونان تلميذتها، حية في حضارتها التي لمعت قبل أن تنبثق حضارة من قرطاجة ابنتها، حية في اختراعاتها واكتشافاتها التي انتشرت قبل أن توجد اختراعات في مصر جارتها وحليفتها فيما بعد، حية في لغتها السريانية ــ واللغة عقل الأمة ــ التي لا تزال تستعمل في معطياتنا اليومية المستديمة وتؤثر على عقليتنا وتفكيرنا وتوجهنا.

ويمكن القول إن معظم لغات هذه المنطقة هي من أصل سامي، وكما يصنفها علماء الفيلولوجيا: العبرية، الآرامية، السامرية، والمؤابية، الفينيقية، السريانية، البابلية، الكنعانية، العربية، الحبشية.

وأول من أطلق على هذا الجنس اسم اللغات السامية هو المستشرق الألماني شلونزر عام ١٧٨٠، وهذه العائلة لا تعرف أمها على وجه الضبط والتحديد، وأقدم أفرادها هم: الآرامية، البابلية، الكنعانية، العربية، فهي لغات موغلة في القدم والجدل حول أيهما أصل أو أم لهذه اللغات يشبه الجدل: البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة، مادام يعوزنا الدليل المادي لإثبات تلك الأولوية.

وقد أثير الجدل بين أركان الآرامية والآثورية، فيوسف داود يرى أنه من غلط العلماء الأفرنجيين أنهم يميزون بين اللغات الآرامية وبين اللغة السريانية كأن اللغة الآرامية هي

الجنس واللغة السريانية، أي اللغة التي سميناها الكتابية هي نوع منه. ولكن هذا التمييز لا أصل له، لأنه كما هو مشروح في المتن كل أمة من الأمم التي يسميها العلماء المذكورون آرامية تسمي نفسها حتى اليوم سريانية (طالع تكوين ١٠: ١١و٢٢) بل إن اقتضى أن نجعل ترتيباً بين الاسمين طبقاً لحال الأمر وجب أن نقول إن اسم السريان هو أعم من اسم الآراميين لأن جميع الأمم التي تتكلم بالسريانية تسمي نفسها سريانية من بلاد العجم إلى نواحي جبال لبنان. وأما اسم الآراميين فلا يصح عند حصر الكلام للسريان الشرقيين لأنهم في الحقيقة ليسوا من بني آرام لكن من بني آثور أخيه[١].

فيما يكتب الأب البير ابونا قائلاً إن لقب (آرام) هو اسم جغرافي أطلق على المرتفعات (الأرض المرتفعة) الواقعة في الشمال الشرقي من سورية، ثم خلعه الآشوريين على الجماعة التي وجدت في تلك المنطقة، ومن ثم عمت التسمية كل القبائل التي تنتسب إلى أصل واحد، وينتسب الآراميون في الكتاب المقدس إلى آرام بن سام بن نوح (تكوين ١٠: ٢٢ –٢٣) أو إلى أسرة ناحور (تكوين ٢: ٢٠ – ٢١)[٢].

ويرىأسد الأشقر أن الآرامية كانت لغة القبائل التي انتشرت في الهلال الخصيب، وأصبحت لغته لأكثر من ألف سنة بدءاً من القرن السادس ق.م حتى مائتي سنة على الأقل بعد الفتح الإسلامي في القرن السابع الذي أدخل معه العربية إلى المنطقة. وتنتمي الآرامية إلى أسرة اللغات السامية التي سادت الهلال الخصيب والجزيرة العربية. في القرن الحادي عشر قبل الميلاد اقتبست الأبجدية الفينيقية، وبدأت نقوشها مذاك تظهرها متأثرة بالآكادية والكنعانية، وفي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد أصبحت اللغة الرسمية للدولة وانتشرت كتاباتها في أصقاع الامبراطورية وبلغت أقاصي آسيا الصغرى واليونان وأفغانستان[٣].

وفي عهد السلوقيين منذ القرن الرابع ق.م أصبحت اللغة السائدة في كل آسيا السامية أي في سوريا وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب.. وكان المسلمون يدرسونها لكثرة فوائدها، وقد كتب بها الأرمن مدة قبل انتشار الأرمنية وحروفها، وقد بلغ

---

(١) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية جزءان طبع في دير الآباء الدومنكيين – الموصل ١٨٩٨ الجزء الأول ص٨ مرجع سابق.

(٢) الأب البير ابونا: أدب اللغة الآرامية مطبعة ستاركو – بيروت ١٩٧٠ ص١٢و١٣.

(٣) أسد الأشقر: تاريخ سوريا المجلد الأول الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٨ ص٢٨٤-٢٨٧ مرجع سابق.

امتداد هذه اللغة إلى أقاصي الشرق في الصين شمالاً وفي الأقطار الهندية جنوباً، فلا نظن أن لغة أخرى حتى ولا اليونانية جارت الآرامية في اتساعها إلا الانكليز في عصرنا[1].

ونعود إلي يوسف داود وهو أشهر من أرخ للغة السريانية حيث يقول: حسب الأمة السريانية شرفاً أنها هي منسوبة إلى آرام الذي هو بن سام بن نوح لحا، وأنه منها خرجت الأمة العبرانية نفسها. فإنه من المعلوم أن الأمة العبرانية التي اشتهرت بتواريخ الكتاب المقدس تولدت من إبراهيم الخليل. والحال أن إبراهيم كان سريانياً أي آرامياً مولداً ووطناً بشهادة الكتاب المقدس نفسه (طالع سفر التكوين ١١: ٢١ و١٢: ١) و(جاء في سفر يهوديث ٥ :٦) أن الأمة العبرانية هي من جنس الكلدانيين. والمعلوم أن اسم الكلدانيين يشمل جميع الآراميين الشرقيين. وإذا صعدنا أيضاً إلى أعلى من ذلك، رأينا أن عابر الذي تنسب إليه العبرانيون هو بعيد عن نوح بأربعة أجيال. وأما أرام أبو السريان فهو بعيد عن نوح بجيلين فقط. وإذا اعتبرنا الجيل الثاني الذي فيه نشأ الجنس السرياني وهو آشور أو آثور الذي هو على الخصوص أبو السريان الشرقيين الذين يقال لهم الآثوريون والبابليون والكلدان نراه هو أيضاً ابناً لسام لحا، فإذاً من بين جميع الأمم السامية المعروفة يحق للسريان أن يفتخروا بأنهم يحوون العنصر السامي بوجه خاص أخص ما يكون[2]. حتى ان اسم الآرامي كان شائعاً عند السريان، فالمسيحيون الأولون جعلوه كناية عن الوثني أو الصابئ أي الذي لم يكن يهودياً.

وما ذكرناه هو الاختلاف والتضارب بين المؤرخين في مسألة معينة وهي: هل الآرامية تسحب على السريانية أم الآشورية، وفي ذلك أصبح النسب يعود لأهواء صاحبه. على أن السريانية هي امتداد للآرامية وهو ما يؤكده معظم المؤرخين الذين لوعددناهم لما وسعت له صفحات الكتاب.

تشعبات الآرامية

تبقى الآرامية هي الفيصل في تنازع الكثير من الأحداث والأوابد التاريخية في المنطقة السورية، لهذا علينا معرفة جوهر الآرامية وتشعباتها، فهذه اللفظة تشمل مجموعة لغوية غنية ومعقدة تتفرع إلى لهجات سامية نطقت بها القبائل الآرامية المنتشرة في مختلف أنحاء

---

[1] الأب هنري لامانس اليسوعي: مجلة المشرق ـ بيروت ١٩٠٣ ص٧٠٥ - ٧٠٧.

[2] المطران يوسف داود: اللمعة الشهية... مرجع سابع ص١٢ .

الشرق الأوسط. وقد تعلم الآراميون من الكنعانيين فن الكتابة الأبجدية وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتاباتهم، غير أنهم كشفوا عن ذواتهم باستعمالهم تعابير آرامية مثل مقطع (بو) و(بيث)، وسرعان ما تخلو عن اللغة الكنعانية وأخذوا في استعمال لغتهم الخاصة. وتعود أقدم النصوص التي وصلتنا باللغة الآرامية إلى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، حيث وضوح اللغة الآرامية وتطورها من اللغة الكنعانية.

وليس هذا بالشيء الغريب، ذلك أن المجتمعات البشرية في تغير دائم، منذ كانت، حضارياً... ذلك أن هذا التغير هو سبيل بقائها ونموها، فهي تتكيف به مع واقعها، وتلقى به حاجاتها، وترضى مثالياتها في وجوه الحياة، وفيما وراء الحياة، وهي بهذا كله يلائمها ويكيفها، ابتداعاً، أو تقتبسه اقتباساً. على أن ذلك كله لا يحدث بصورة رياضية فيها الجمع وفيها الطرح، ولكنه يكون في صورة كيميائية، بحيث ينشأ مركب معقد، وصورة متكاملة ذات خصائص جديدة قد يكون بعض العناصر فيها أشد تمثيلاً، وبعض الملامح أكثر ظهوراً، ولكنها كل منطقي، هو مجموعة القيم والنظم والغايات والوسائل التي يتحرك خلالها وبها ولها المجتمع، في نسيج متلاحم من العلاقات المختلفة، ابتداء من القيم العليا وأنماط السلوك والتفكير إلى مئات من الاستعمالات اليومية[1].

هذا التطور من اللغة الكنعانية إلى الآرامية التي حلت محلها هو الذي جرى لاحقاً للسريانية بدل الآرامية حتى أصبحت خليفتها أو وريثتها لا كونها فرعاً منها كما ذهب بعضهم خطأ، ذلك أن الفروقات هي في اللهجات وليست في اللغات. فلهجات اللغة السريانية الآرامية تتفرع إلى لهجتين نتيجة انتشارها في رقعة مترامية الأطراف من البلاد الشرقية الممتدة ما بين مملكة فارس والبحر الأبيض المتوسط، وقد عرفت هاتين اللهجتين بالغربية والشرقية وهي تعني:

الغربية هي لهجة سورية وفلسطين وما بين النهرين العليا وطور سيناء في مصر.
الشرقية وهي لهجة العراق وفارس.

وثمة لهجة ثالثة تميزت عن هاتين اللهجتين وهي المعروفة بالفلسطينية، وهي اللهجة التي تكلم بها المسيح، وسنعود إلى هذه النقطة بعد قليل.

---

(1) د. محي الدين صابر ود. لويس كامل مليكه: البدو والبداوة ــ مفاهيم ومناهج ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ١٩٨٦ ص١٣ مرجع سابق.

إن تشعب اللهجات في اللغة السريانية ليس أمراً غريباً، لأن ذلك هو شأن سائر اللغات التي يقطن أصحابها أماكن تفصل الواحد عن الاخر مسافات شاسعة، ولنا مثال على ذلك اللغة العربية: صحيح اللهجة الفصحى هي الأساس ولكن اللهجة العامية خضعت لظروف وبيئات مختلفة خاصة في كل بلد منها، حتى ليعسر على العربي التونسي مثلاً أن يفهم أخاه العربي اليمني أو المغربي إلا بصعوبة، فلكل بلد لهجته الخاصة وتعابيره ومصطلحاته الخاصة لا يعرفها أبناء البلد الواحد. وهذا كان شأن اللغة الآرامية ــ السريانية، التي تفرعت منها لهجات ولغات متعددة على مر الزمان، انقرض قسم منها وما زال القسم الآخر معروفاً ومحكياً حتى يومنا هذا.

من ذلك الآرامية القديمة وهي ترقى إلى الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد، حينما تخلى الآراميون عن اللغة الكنعانية وشرعوا يستعملون لهجتهم المحلية، ثم أخذت هذه اللهجة في التطور والاكتمال.

أما الآرامية الرسمية فهي لهجة جديدة أتت بعد الأولى وهي التي تداولتها الوثائق الرسمية في مختلف المناطق الآشورية، ثم تبنتها الامبراطورية الفارسية بدورها كلغة رسمية في الدوائر الحكومية، وبقيت تنحسر وآثارها ظاهرة لدى الأنباط والتدمريين إلى العهد المسيحي، وتمسكت بها الجماعات الفلسطينية المناهضة لليونانية في تلك المرحلة.

والآرامية الغربية هنا تخص جماعات آرامية تغلغلت نحو سورية وفلسطين وأخذت تتكلم لغتها بالإضافة إلى الكنعانية. وبعد سقوط السامرة (٧٢١ق.م) انتشرت الآرامية فيها بوساطة الجاليات التي أحلها الآشوريون فيها، ولما عاد المسبيون من بابل إلى فلسطين، كانت الآرامية وليس العبرية هي اللغة التي يفهمها الجميع. وبالرغم من سعة انتشار اليونانية كانت الآرامية لا تزال لغة الشعب إبان العهد الجديد، ولم تطردها إلا اللغة العربية بعد الفتح الاسلامي[1].

هذه الآرامية الغربية كان لها أربع لهجات وهي:

الآرامية اليهودية الفلسطينية، وهي التي يقال لها السريانية وبها تكلم المسيح، وليس اللغة اليونانية. وهذه اللهجة كانت دارجة في أورشليم وسائر بلاد فلسطين، وسميت مرة بالآرامية وبالسريانية وبعضهم سماها الكلدانية (علماً أن الكلدانية كتسمية لطائفة

---

[1] الأب البير أبونا: أدب اللغة الآرامية مطبعة ستاركو ــ بيروت ١٩٧١ ص٢٢ مرجع سابق.

ظهرت عام ١٤٤٥)، كما سميت هذه اللهجة في بعض الكتب عبرانية لأنها كانت لغة العبرانيين ويزيل هذا اللبس المطران يوسف داود قائلاً:

(إن كل الذين ألفوا الكتب في فلسطين في ذلك العصر وما يقرب إليه كتبوا باللغة السريانية التي لسبب كتابتها بالخط البابلي المربع يسميها الافرنج الكلدانية. من ذلك أسفار طوبيا ويهوديث وابن سيراخ والترجومات الكثيرة، أي ترجمات العهد القديم عند اليهود باللغة الكلدانية المذكورة وجانب عظيم من كتب التلمود. وأما في اللغة العبرانية فقلما كتب علماء اليهود في ذلك العصر. وأما في اللغة اليونانية فلم يصنف أحد منهم شيئاً، حتى أن يوسف الأشقر المؤرخ اليهودي المشهور نفسه الذي عاش في القرن الأول للمسيح وتواريخه محفوظة إلى اليوم في اللغة اليونانية يشهد في مفتتح كتاب الحروب اليهودية أنه كتب أولاً تواريخه في لغة جيله، أي السريانية، التي كانت في ذلك الزمان لغة اليهود وبعد ذلك نقلها إلى اللغة اليونانية لإفادة الغرباء. ثانياً: إن أسماء اليهوديين واليهوديات المذكورة في أسفار العهد الجديد إذا نحينا عنها الأسماء العبرانية التي اتخذت من باب التدين أو حب الجنس نحو يوسف ويعقوب وشاول ومتى ومريم وحنة فالبقية منها هي كلها سريانية نحو توما وبرنابا وبرتلمي وبرابا وقيافا ومرتا وسالومي وشفّيرة وطبِيثا. وكذلك أسماء شيع اليهود الدينية كالفريسيين والصدوقيين، ومن المعلوم لكل أحد أن الناس في كل مكان إنما تسمى بأسماء لغة أهله. وأما الأسماء اليونانية لأهل فلسطين الأصليين فهي قليلة في العهد الجديد مثل فيلبس ونقوديمس، وأقل منها اللاتينية نحو مرقس ولوقا. ومن المحتمل أن هذه الأسماء الغريبة نقلها كتّاب العهد الجديد اليونانيون من لغة العبرانيين إلى عبارة يونانية كما هي عادة القدماء)[١]

الآرامية السامية وهي الأبجدية الغربية التي كتب بها الساميون آراميتهم وهي تطور محلي للخط الكنعاني القديم.

آرامية فلسطين المسيحية وهي اللهجة التي استعملها المسيحيون الأولون في فلسطين وكذلك مسيحيو مصر الناطقين بالآرامية.

الآرامية الغربية الحديثة وهي اللهجة المستعملة لدى ثلاث قرى تقع في الشمال الشرقي من دمشق وهي: معلولا وبخعا وجبعدين[٢] وتمثل سريانيتها ٢٠% فقط بالنسبة

---

(١) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية مرجع سابق ص٢٦و٢٧.

(٢) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو السريانية مرجع سابق ص ٢٦و٢٧.

للسريانية الأدبية[1]، بعد أن دخلت العربية إليها كثيراً وبلهجة محلية، هذا على الأقل فيما يمكن تقييمه.

أما الآرامية الشرقية فهي مجموعة لهجات انتشرت في منطقة دجلة والفرات وحتى جبال أرمينيا وكردستان، ويمكن تمييز أربع فئات منها[2]:

الآرامية اليهودية البابلية وهي ظاهرة في التلمود البابلي وفي وثائق ترقى إلى ما بين القرنين الثاني والسابع للميلاد.

المانديةة: كتب المانديون في العراق أدبهم الديني بهذه الآرامية الشرقية، وقد طرأ عليها تغيير لفظي كبير وتأثرت باللغة العربية.

السريانية: كانت مستعملة كلغة أدبية قبل العهد المسيحي. وفي القرن الخامس عندما ثارت الجدالات العقائدية في الشرق، استفادت اللغة من ذلك فائدة عظمى، إذ راحت كل فئة تعمل على صقلها وإغناء مفرداتها وضبطها لتكون قادرة على التعبير عن حاجات الناس كلها، اللاهوتية والفلسفية والعلمية والطبية والفلكية واليومية. وكان للانعزال الذي سببته هذه الجدالات أثره العميق أيضاً في كلتا الفئتين الشرقية والغربية وفي تطور اللغة فيهما، إذ أخذت الاختلافات اللفظية والكتابية تبرز واضحة منذ نهاية القرن السادس الميلادي. وهكذا انقسمت الآرامية من حيث اللفظ والخط إلى: آرامية شرقية وآرامية غربية.

السريانية الحديثة (السوادية) وهي اللغة المحكية لدى الجماعات المسيحية القاطنة في جبال كردستان والقرى المسيحية الواقعة في شمال العراق وعلى الضفاف الشرقية من بحيرة أرومية وجبال طور عبدين.

وهكذا نرى أن اللغة الآرامية لا زالت موجودة من خلال إحدى لهجاتها وهي السريانية، التي تعود إلى لغات عدة شعوب سامية كالآكاديين، والبابليين، والآشوريين، والآراميين، وسواهم، ولكن كل شعب من هذه الشعوب عرفت لغته السريانية باسمه، كاللغة البابلية والآكادية والآشورية والآرامية.

ومعظم هذه اللغات اندثرت أو كادت، ولم يبق منها سوى معالم بسيطة لا تروي الغليل، كاللغة البابلية التي دعيت في فلسطين بالعبرية أو السريانية الفلسطينية، والتي نسخت فيها مجموعة كبيرة من كتب اليهود، أشهرها الترجومات وهي تتضمن أسفار العهد

---

(1) المجلة البطريركية ـ دمشق السنة الأولى العدد الثالث ١٩٦٢ ص١١٥ و١١٩.

(2) الأب ألبير ابونا: أدب اللغة الآرامية مرجع سابق ص٣٠ و٣١ و٣٢. وما ورد ملخص عما ورد في هذه الصفحات.

القديم منقولة من العبرانية إلى السريانية، لأن اليهود كانوا قد فقدوا لغتهم لدى عودتهم من سبي بابل. وهكذا قل عن الآكادية. وما تفرع من هذه اللغات كاللهجة النبطية التي كانت لغة النبطيين الذين وجدوا أولاً في سيناء ثم سكنوا شرقي الأردن والمنطقة المعروفة اليوم بحوران وأشهر مدنهم بصرى والبتراء، وكذلك اللهجة المانديه التي كانت لهجة قوم يدعون اليوم الصابئة ويقطنون نواحي البصرة في العراق ويعرفون بنصارى مار يوحنا، لكن ديانتهم وثنية مشوبة بشيء من اليهودية والمسيحية، ((وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور: ففي سورة البقرة (٦٢) جاءت الآية الكريمة الآتية {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون}، وتتكون أبجدية الصابئة المندائية من٢٣ حرفاً وهي تقرأ من اليمين إلى اليسار)).(١)

هذه اللغات الأخوات أنفصل بعضها عن بعض بقواعده وألفاظه، وصارت لها حدود معروفة، ومنذ زمن بعيد، وبقي بينها تشابه كبير في الألفاظ وحتى في القواعد.. فنجد الكلمة عربية وسريانية وعبرانية وبابلية مشتركة باللفظ نفسه والمعنى ذاته، وكل هذه اللغات تكتب من اليمين إلى اليسار، من حيث الأساس، وأعقد القواعد العربية مثلاً، وهي قاعدة قراءة العدد والمعدود في حالة الأفراد والتركيب هي نفسها المتبعة بلا أقل تغيير في العبرية والسريانية.

ومهما اختلفت كتابة هذه اللغات أو تشابهت، فإنها تبقى على كل حال هي اللغة التي دونت ديانة القوم وصلواتهم وفلسفتهم وآدابهم وحضاراتهم وحروبهم وجغرافيتهم ومظاهر حياتهم الأخرى، وامتزجت هذه الأفكار بالوراثة أو الترجمة، وتشابكت فأورثت الأجيال مزيجاً لغوياً، وترسبت من كل منها في لغتنا اليومية، واستعملت حتى نسي أصلها وصارت تنسب أحياناً إلى الترك أو الفرس دون معرفة الحقيقة.

هذه الرواسب عبثاً نحاول إرجاعها قسراً إلى لغة واحدة من هذه اللغات. ولا يدل عملنا القسري هذا إلا على جهل وتعصب لا تزيد اللغة العربية شرفاً، بل يكفيها شرفاً أنها ألمع اللغات السامية، إذ كلها ميت أو مختصر، وفيها القرآن الكريم، وأنها حية متطورة موسيقية، ثم هي لغة مئات الملايين من البشر(٢).

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط ــ لندن العدد ٧٣٢٥ ١٩٩٨/١٢/١٨ ص٢٠.

(٢) لميعة عباس عمارة: رواسب السريانية في العامية العراقية مجلة التراث الشعبي ــ بغداد عدد ١٠ حزيران ١٩٧٠ ص٢٦.

آثار اللغة السريانية

نأتي أخيراً إلى القول إن اللغة السريانية لازالت تسمع وتقرأ في الكنائس التالية: السريانية بشقيها الأرثوذكسي والكاثوليكي وعند الموارنة والآشوريين والكلدان، وهي لغة أدبية صميمية فصيحة. بيد أن هناك قرى ثلاثاً شمالي دمشق أهاليها معظمهم من المسلمين يتكلمون السريانية، وفي الشمال الشرقي من سوريا وفي مناطق من العراق هناك قرى وتجمعات يتكلم أهاليها السريانية بالإضافة إلى العربية.

واللغة السريانية الفصحى، كما نوهنا، تستعمل في الطقوس الدينية ولها لهجتان: **غربية وشرقية**، **الأولى** هي اللغة الطقسية للكنيسة السريانية حيثما وجدت، وطائفة السريان الكاثوليك، والموارنة، أما **الشرقية** فهي اللغة الطقسية للكلدان والنساطرة، وكانت إلى مدة غير بعيدة اللغة الطقسية للملكيين، أي الروم الارثوذكس والكاثوليك، وهم السريان الذين اتبعوا مذهب الملك البيزنطي في القرن الخامس (وقد ظل السريان الملكيون يستعملون الطقس واللغة السريانيين حتى القرن العاشر، حيث غيروا الطقس السرياني بالبيزنطي لكنهم ظلوا محافظين على اللغة السريانية، فترجمت لهم الطقوس اليونانية إليها، واستمر الأمر كذلك حتى القرن الثامن عشر حيث استغنى الملكيون عن اللغة السريانية وأحلوا محلها اللغة العربية نظراً إلى أن معظمهم لا يفهمون السريانية، ولا تزال هنالك كتب طقسية سريانية عديدة لدى الملكيين)[1].

نعود إلى اللغة السريانية الفصحى بشقيها حيث نرى أن الفرق بين اللهجتين هو لفظي بحت، أما أصولهما وقواعدهما فهي واحدة.

أما اللهجة العامية المتداولة في القرى الثلاث القريبة من دمشق فهي من بقايا اللغة السريانية الفلسطينية وكانت يوماً لغة بلاد الشام، ولفظها مزيج من اللهجتين الشرقية والغربية، وهي ما زالت محافظة على عناصر كثيرة من اللغة الآرامية الأصلية رغم ما شابها من شوائب على مر الأيام، كما أن المتكلمين بها محافظون على الصيغة السريانية، فهم دائماً يعطون الكلمات التي يقتبسونها من العربية أو غيرها، مسحة سريانية.

---

[1] الأب صليبا شمعون: اللغة السريانية وآدابها وعلاقتها باللغة العربية المجلة البطريركية ـ دمشق حزيران ١٩٦٩ السنة الرابعة العدد ٦٨ ص٤١٦.

وتستعمل اللهجة الطورانية في منطقة طورعبدين ويقال لها الطورانية وهي لغة عشرات القرى التي كانت ممتدة بين ماردين وأزخ فأصبحت الآن ممتدة إلى القامشلي والحسكة بفعل هجرة السكان، هذا فضلاً عن الذين هاجروا إلى حلب ودمشق ولبنان وفلسطين والذين لا يزالون يتكلمونها، ولفظهم إلى اللهجة الغربية الفصحى أقرب، ولكن دخلت هذه اللهجة كلمات وتعابير ومصطلحات غريبة عن طريق العربية والتركية والكردية فشوهت جمال هذه اللغة، حيث غدت تمثل ٥٠% من فصاحة اللغة السريانية ـ لغة الكنيسة[١].

وتبقى اللهجة الآشورية المتداولة في بعض مناطق من شمال شرق سوريا وفي قرى من العراق وحتى إلى إيران وهي تخص أبناء طائفتي النساطرة والكلدان، وقد دخلت إليها هي الأخرى كلمات أعجمية عربية وفارسية وتركية وكردية.

قوة اللغة السريانية

إن اللغة السريانية التي تكاد تنسى أو تندثر عدت في عهد الامبراطورية الرومانية أهم لغة بعد اللغة الإغريقية، كما أنها أهم اللغات الآرامية وأغزرها أدباً. ولم يأت هذا الصيت من فراغ.. فقد هذب السريان لغتهم ووضعوا لها المعاجم والأصول اللغوية والقواعد النحوية ووشوها بحلي الأدب والبيان وزرعوا فيها الفصاحة والبلاغة نثراً ونظماً، ومن أشهر أئمتهم في هذه العلوم يوسف الأهوازي ويعقوب الرهاوي وانطوان التكريتي صاحب كتاب علم الفصاحة المشهور والحسن ابن بهلول صاحب القاموس (٩٦٣م) وايليا النصيبيني ويوحنا ابن زوعبي النحوي ويعقوب البرطلي صاحب كتاب الديالوغ (أسئلة وأجوبة) وابن العبري صاحب كتاب (اللمع) النفيس وعبد يشوع الصوباوي مؤلف ديوان فردوس عدن.

على أن النحاة السريان لم ينظر أحد منهم إلى قواعد اللغة السريانية، ولم يبحث عنها كما تقتضي طبيعة هذه اللغة، إذ أنهم غالباً اقتدوا بنحاة اللغة اليونانية التي منهاجها مختلف اختلافاً عظيماً عن منهاج اللغة السريانية. فلا نرى أحداً منهم بحث عن أصول الأسماء والأفعال ولا عن الفرق بين الأفعال الثلاثية أو الرباعية وبين المزيد فيها، ولا أحد نظر إلى

---

[١] سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً مرجع سابق ص٧٩.

أحوال اللغة السريانية بالمقابلة إلى اللغات السامية أخواتها ولا سيما العربية. وفي ذلك فاق النحاة اليهود على السريان حيث بنوا كل قواعد نحو اللغة العبرانية على القواعد التي وضعها النحاة العرب والتي تناسب طبع اللغات السامية مناسبة تامة (وفي ذلك فضل عظيم للنحاة العرب)[1]، وقابلوا أكثر قواعد اللغة العبرانية بقواعد اللغة العربية، وهكذا وقفوا على حقيقتها وعاملوها حق المعاملة. نعم إن ابن العبري اقتدى في كتبه النحوية بنحاة العرب لكن في أبواب من النحو فقط كالمبتدأ والخبر والتوكيد والبدل والعطف وهي أبواب يمكن الاستغناء عنها. وكان حقه أن يقتدي بنحاة العرب في أبواب التصريف الذي منه يعرف كنه بناء الكلمات السريانية على قواعده الحقيقية وهو أهم ما تشتمل عليه هذه الصناعة.

واللغة السريانية غنية بثروتها الأدبية، كافية للتعبير عن جميع الأغراض والمقاصد، وتصوير كل ما يخالج النفس من خواطر، كما أنها تفي بجميع الأغراض الأدبية والعلمية، وتحيط بصنوف العلوم والمعارف القديمة، الفلسفية منها والطبية والفلكية والرياضية وما إليها.

تتألف الأبجدية السريانية من ٢٢ حرفاً، يزدوج لفظ ستة منها، ويعرف باللفظ (اللين والقاسي)، مثال ذلك حرف الباء فهو يلفظ باء وفاء (V الافرنجية)، والدال ذالاً والتاء ثاء والكاف خاء إلى آخره.

جدول يوضح طريقة التعامل بالقيمة العددية للأبجدية السريانية

الأحرف السريانية	ما يقابلها في العربية	قيمتها العددية	الأحرف السريانية	ما يقابلها في العربية	قيمتها العددية
ܐ	ا	١	ܠ	ل	٣٠
ܒ	ب	٢	ܡ	م	٤٠
ܓ	ج	٣	ܢ	ن	٥٠
ܕ	د	٤	ܣ	س	٦٠
ܗ	ه	٥	ܥ	ع	٧٠
ܘ	و	٦	ܦ	ف	٨٠
ܙ	ز	٧	ܨ	ص	٩٠
ܚ	ح	٨	ܩ	ق	١٠٠
ܛ	ط	٩	ܪ	ر	٢٠٠
ܝ	ي	١٠	ܫ	ش	٣٠٠
ܟ	ك	٢٠	ܬ	ت	٤٠٠

وبقول آخر ازدوج لفظ ستة منها وهي: الباء، الجيم (المصرية)، الدال،الكاف، الباء (p الفرنجية) والتاء، وهذا أحد لفظين. أما اللفظ الثاني فهو من (V الفرنجية)، الغين، الذال، الخاء، الفاء، والتاء، ويتميز بنقطة صغيرة تُرسم تحت الحرف، ويعرف الأول باصطلاح اللغويين السريانيين بـ (القاسي) والثاني بـ (اللين)[2].

---

(1) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية مرجع سابق ص ٢٠٦.

(2) البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية مطبعة ألف باء ــ دمشق ١٩٦٩ ص١٤.

كما أن من هوية اللغة السريانية بدء الكلمة السريانية بالتسكين، وتسكين نون الوقاية الفاصلة بين الفعل والضمير، وحرف المضارعة للمفرد المذكر الغائب في السريانية الحالية هو نون وفي هذا يتساوى والجمع المتكلم (نأكل) بدل (يأكل) كما هو الشأن في اللغة العربية ياء، وأن نون النسبة المختصة باللغة السريانية، والدخيلة في العربية، لم يثبتها السريان في اسمهم هذا، فقالوا: سورياي، بالياء، ولم يقولوا (سريانا) بالنون. ومن المعلوم أن النون في قول العرب (روحاني، رهباني، نصراني، رباني..إلخ)، شاذة عن قواعد الصرف العربية، وهي منقولة عن السريانية لا إشكال في ذلك على وجه التأكيد.

واللسان السرياني على وجه العموم له خواص يختص بها وتعم جميع فروعه ولغاته وتميزه عن سائر الألسنة السامية أخواته. فمن ذلك أن اللسان السرياني ليس له أداة تعريف للأسماء. ثانياً إن له أداة خصوصية لإضافة الاسم إلى اسم آخر وهي الدال تدخل على المضاف إليه. ثالثاً إن ميم الجمع تقلب فيه إلى نون. رابعاً إن المثنى لم يبق منه أثر في اللسان السرياني إلا مالا يُحتفل به، خامساً إن الحركة التي لا يعقبها مد أو حرف مشدد أو حرف ساكن تسقط دائماً في اللفظ عن اللسان السرياني إلا إذا أوجب إبقاؤها صعوبة اللفظ. سادساً إن بعضاً من الحروف الهجائية التي في اللغة السامية الأصلية تبدل في السريانية من حروف أخرى، وأشهر ذلك الذال والثاء والضاد والظآء، فإن الذال تبدل من الدال والثاء من التاء والضاد من العين والظآء من الطآء. سابعاً إن الاسم المفرد وجمع المؤنث السالم إذا لم يلحق بهما شيء يطلق آخرهما بالألف. ثامناً إن النون في بعض الأسماء الأولية تقلب إلى راء. تاسعاً إن في اللسان السرياني صيغة فعلية لا توجد إلا فيه وقد ضاعت من سائر الألسنة السامية حتى العربية وهي صيغة سَفْعَل أو شَفْعَل[1].

سريان السريانية

كتب علماء السريان السوريون في كل فن من فنون العلم، فقد كانت لغتهم علمية ودينية ترجم إليها الكثير من الكتب في العلوم المختلفة من الإغريقية واللاتينية والفارسية، وقد كان السريانيون من بابل أول من اشتغلوا بالرياضيات والفلك وعلم الهيئة، كما لهم الفضل السابغ باستخراجهم إلى السريانية مصنفات اليونانيين الفريدة القديمة التي كثير منها فقد في أصله اليوناني وحفظ في الترجمة السريانية. ولما أقبل العرب على العلوم في بلدئ

(1) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية مرجع سابق ص١٥.

الخلافة العباسية، جند المأمون علماء السريان الذين أعانوهم على ذلك واستخرجوا لهم الكتب اليونانية والسريانية من اللغة اليونانية واللغة السريانية إلى العربية، وهم الذين صاروا لهم أول المعلمين. وأحسب أن هذه العملية ما كان يقوى عليها غير خليفة، لأن السريانية كانت قد احتكرت العلوم وأحاطتها بشيء من قدسية الدين والتكتم، بحيث حافظت على كيانها وأهميتها قروناً طويلة، حتى حولها المأمون بالمال والسلطان إلى كومة أوراق قديمة محتبسة في الأديرة والكنائس والمتاحف، وبدأت تضعف ويزول سلطانها وينحسر، ويمتد سلطان اللغة العربية ويشتد فوسع صدرها اليونانية والسريانية ونقلت للعالم بعدئذ تراثاً لولاها لقضي عليه بالموت، وهو الذي أوصل عبر الحضارة العربية في الأندلس إلى ما وصلت إليه الحضارة العالمية الراهنة.

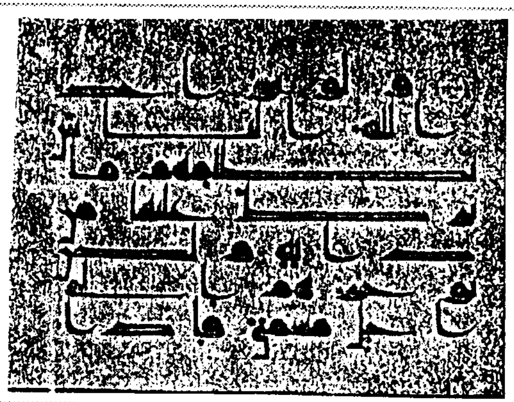
وتاريخ السريانية عريق في القدم، فأول الممالك في الدنيا قامت لدى السريان، أي في بابل ونينوى، وأن السريانيين الشرقيين ولاسيما أهل بابل هم أول الأمم الذين اشتغلوا بالعلوم وعلى الخصوص علم الهيئة، أي علم الأفلاك، والعلوم الرياضية، واستنبطوا صناعة الكتابة النفيسة، وأن باقي الأمم تعلموا منهم ولا سيما اليونانيين، كما يكفيهم فخراً أن المسيح تكلم بلغتهم.

السريانية - العربية: الجذور والامتداد

ما من علاقة قامت بين شعبين وحضارتين كما جرى بين السريان والعرب اللذين ينتميان إلى أصل واحد، وجذر عريق في القدم انبثقت عنه الحضارات الشرقية ألا وهو السامية، والعلاقة بين السريان والعرب علاقة زواج أبدي لا تنفصم عراه في كل جوانبه، وليس في كل ما نقوله أي غضاضة، عما تداخل بين لغتي الاثنين مع بعضهما البعض وإحلال لغة مكان أخرى، فذلك كان دائما مجرى التاريخ.

واتسعت العلاقات بين السريان والعرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الملقب (فاروق)، التي تعني بالسريانية منقذ أو محرر، وقد أطلقها السريان على الخليفة لأنه أنقذهم من ظلم الروم البيزنطيين، وما كان للفتح العربي لبلاد السريان أن يتم بالسرعة والسهولة المعروفتين، لولا مؤازرة سكان البلاد الأصليين (السريان)، وقد أخذت العلاقات تشتد وتقوى، حتى بلغت أوجها في عهد الخلفاء العباسيين، كما هو معلوم للجميع.

صفحة من مصحف كوفي منقوط نقط إعراب يعود للقرن الثاني للهجرة موجود في كربلاء



وفي ذلك يقول مصطفى الشهابي: (للسريان علاقات وثيقة مع العرب وأواصر أرخى عراها كر الأيام وتقلب الحكام وتفشي الجهل، ولكن دون أن تفصمها. فمن السريان الأقدمين علماء أعلام مستعربون أتقنوا اللغة العربية وألفوا فيها، وترجموا تصانيف ذاع صيتها واستفاضت شهرتها، كما أن من العرب عدداً دان بمذهب السريان قبل الإسلام خاصة، واختلط بأفراد هذه الملة حتى عُدّ منهم. واللغة العربية في أيامنا هذه تحتاج إلى من يتقن العربية والسريانية، ويكشف لنا عما أبقته الأيام من آثار السريان المجيدة وعما خدموا به اللغة العربية في مختلف العصور الإسلامية)[1].

---

(1) مصطفى الشهابي: مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق مجلد ١٢ سنة ١٩٣٢ ص٦٣.

وقد كانت للغة الإغريقية في سورية الطبيعية أيام عز في زمن الاسكندر المقدوني وخلفائه من السلوقيين والبطالسة خصوصاً، وكانت لغة الجاليات الإغريقية المنبثة في أرجاء الشرق الأوسط، وصارت لغة العلم الذي رعاه الملوك، وأسهم فيه كثير من أبناء البلاد الأصليين. ثم تضاءلت مكانة الأغريقية، وحتى العلوم المدونة فيها، وكثر الاهتمام بالتدوين باللغات المحلية، ومنها الآرامية ووريثتها السريانية، ولم ينقذ تقلصها تقدير الرومان لها، وهم الذين ورثوا السيادة على حوض البحر المتوسط منذ القرن الأول الميلادي. وأصبحت مراكز العلم المدون بالإغريقية محدودة في العالم الإسلامي وفي مناطق محدودة، أبرزها الإسكندرية وأنطاكيا، وكانت مراكزها المنتعشة في بلاد الدولة البيزنطية. فلا غرابة أن نجد العرب عندما اهتموا بنقل علوم الإغريق يرسلون المبعوثين إلى الدولة البيزنطية للحصول على كتب الإغريق، ولم يكونوا ليفعلوا ذلك لو كانت هذه الكتب متوفرة في بلاد الدولة الإسلامية[١].

كتابة بسملة بخط كوفي مشغول بالزخرف الهندسي من الطراز المملوكي الجركسي في مصر



وقد ضمت دولة الإسلام عند تكوينها لغات متعددة، تنقل أكثرها شفاهاً، ودوّن بعضها بكتابات متعددة، في أقاليم المشرق. وذكر ابن المقفع أن فيها من لغات (الفهلوية)، ويتكلم بها أهل أصفهان والري وهمدان ونهاوند وأذربيجان، والدرية لغة أهل المدائن والبلاط الساساني، وأهل خراسان وبلخ، والفارسية لغة أهل فارس، والخوزية لغة بعض أهل الأحواز، والسريانية لغة أكثر أهل الشرق[٢].

والأمثلة التي يمكن إيرادها عن مدى عراقة السريان وخدمتهم للعرب والعربية كثيرة وكبيرة نذكر البعض منها، فقد ذكر ابن جلجل أن هارون الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه، وهو سرياني مسيحي، ترجمة الكتب القديمة مما وجد في أنقرة وعمورية وسائر الروم التي

---

(١) مجموعة من المؤلفين: إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ١٩٩٧ ص١٦.

(٢) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم: الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم مطبعة الاستقامة ــ القاهرة ص ١٥.

سيطر عليها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة، ووضع له كتّاباً خداماً يكتبون، وقد خدم هارون والأمين والمأمون وعاش إلى زمن المتوكل[١].

ويذهب فيليب حتي إلى أن (للسريان الفضل في يقظة العرب عامة ونهضتهم الفكرية في بغداد زمن العباسيين ما لم يكن مثله لأمة واحدة سواهم، تلك النهضة التي غدت ولا تزال مفخرة العصر الإسلامي القديم)[٢].

وفي مجال الفكر، استبقى بعض فلاسفة العرب لابن سينا الحكمة والمعرفة عن أصول يونانية عن طريق السريانية. وقال الكندي في إحدى رسائله (نقلاً عن رسائل الكندي الفلسفية ص١٠٢): (كان السريان لنا سبيلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير، فإنهم لو لم يكونوا لم يجتمع لنا هذه الأوائل الحقية)، ويقول علي مصطفى الفارابي (نقلاً عن تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علوم الكلام عند المسلمين ص١٣٩): (بهذا يمكننا أن نقول إن السريان هم الذين علموا المسلمين الفلسفة أولاً، وهم الذين ترجموها لهم ثانياً، ولهذا تأثر المسلمون بالفلسفة التي كان يعرفها هؤلاء السريان)[٣].

ويقول الجاحظ: (كان الأطباء السريان كالمحتكرين للطب في صدر الدولة العباسية، وربما قبلها ومما عظمهم في قلوب العوام، وحببهم إلى الطغام أن منهم كتّاب السلاطين، وفراش الملك، وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة)، ويروي قصة فشل طبيب مسلم في حرفته وأنه لو كان نصرانياً لم ينل هذا الفشل[٤].

---

[١] أورد ذلك أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل في كتابه: طبقات الأطباء والحكماء ص٦٥. عن: مجموعة من المؤلفين: إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب مرجع سابق ص٢٦.

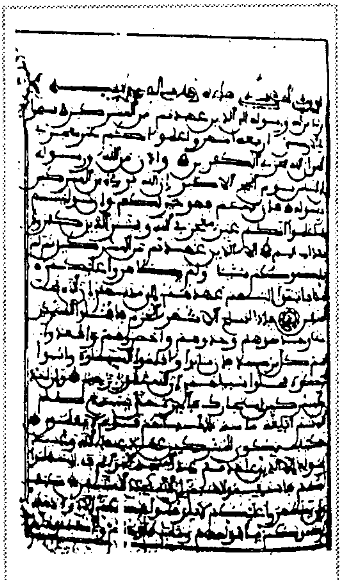
[٢] د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد، ود. عبد الكريم رافق دار الثقافة ــ بيروت ١٩٥٨ ص٧٩ الجزء الأول مرجع سابق.

[٣] الأب جوزيف ترزي: تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية الأرثوذكسية ــ صحيفة بيروت تايمز ــ لوس أنجلوس ١٢ ــ ١٩ ــ نيسان ١٩٩٠ ص٢٣.

[٤] صالح أحمد العلي رئيس المجمع العلمي العراقي: العرب والعلوم الأجنبية في العهود الإسلامية الأولى ــ بغداد ١٩٨٩ نقلاً عن أبو عثمان عمرو بن الجاحظ (الرد على النصارى) في الحاجظ: ثلاث رسائل ص١٧.

اللغات تأخذ من بعضها

أخذت العربية الكثير من الألفاظ السريانية حتى أصبحت المعاجم العربية مشحونة بهذه الألفاظ، ويعود ذلك إلى (أن العرب في الجاهلية والقرون الأولى للإسلام، خالطوا المسيحيين من عرب وسريان، في بلاد اليمن ونجد والحجاز ثم في بلاد الشام الفسيحة التي كانت تمتد من حد عريش مصر حتى جبال طوروس ونهر الفرات، ثم في بلاد الجزيرة أي ديار بني ربيعة والعراقين العربي والعجمي ثم بلاد فارس وخراسان، وعنهم أخذوا في عنفوان الأمر الألفاظ الخاصة بدين النصرانية وضموها إلى لغتهم، ومنها سريانية بحتة ومنها يونانية، غير أنهم بوساطة السريان وبحسب لفظهم نقلوا أكثر ما نقلوه منها،



صفحة من مصحف كتب بخط أندلسي من الروضة الحسينية بكربلاء، من القرن الخامس الهجري

ثم أدخلوها في كتب اللغة والمعاجم عند تدوينها كما أدخلوا بعض الألفاظ اليونانية ونزراً من الحبشية والعبرية. ثم استعاروا الكلمات التي لا عهد لهم بها، مما يتعلق بالزراعة والصناعة والملاحة والتجارة والعلوم وما إليها. وحينما عاشروا الفرس أخذوا عنهم ما أخذوا مما هو معروف، ولكن ظهور أئمة لغويين من الفرس الذين دانوا بالإسلام، وحذقوا لسان العرب وأسدوا إليه بمصنفاتهم أيادي بيضاً مشكورة خالدة على الدهر، دعا إلى العناية بجمع كثير من الكلمات الفارسية التي عربوها[1].

ومن نافل القول، لا تخلو لغة مهما كانت غنية من كلمات أجنبية، ويقع هذا الاقتباس من مجاورة الشعوب بعضها لبعض ومخالطاتها ومهاجراتها ومتاجراتها وأخذها الدين والعلوم والصناعة بعضها من بعض، وخاصة من استيلاء قوم على قوم وإخضاعه لسلطانه. وقد وقعت هذه العوامل كلها للعرب، فلا بدع إذا دخلت لغتهم، على سعتها،

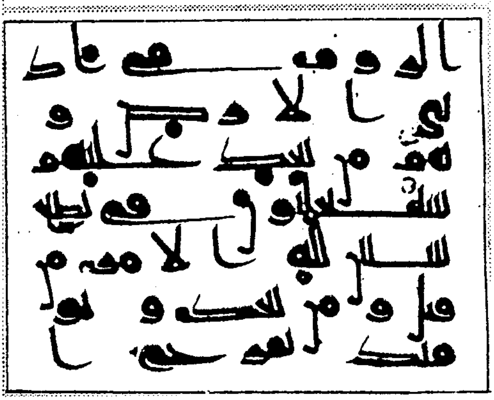
---

(1) البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية ـ نشر المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٥١ ص٣.

كلمات أعجمية، والعكس بالعكس. فليست البلاد العربية منعزلة عن بقية الأقطار، حيث جاوروا الآراميين والعبرانيين والحبش والفرس واليونان والرومان والقبط وغيرهم في قديم الزمان، ووقعت هجرات من بلادهم وإليها وتعاطوا التجارة مع الأقطار وأخضعوا أقواماً كثيرة لسلطانهم وخضعوا لسلطان غيرهم، فكان لا مناص للعربية من أن تدخلها مفردات أعجمية من لغات الأقوام الذين أضحوا من رعاياهم أو خالطوهم وكان طبيعياً أن يدخلها ألفاظ آرامية من العراق وسوريا، وفارسية من العراق وإيران، وهندية من الهند، وتركية، وتتارية من بلاد الترك والتتار، وقبطية من مصر، وحبشية من الحبشة، وبربرية من المغرب، ثم فرنسية وانكليزية وإيطالية وإسبانية وغير ذلك في الأزمنة المتأخرة.

إن اتخاذ الأقوام التي دخلت في حوزة العرب اللغة العربية لغة لهم وامتزاج العرب بهم والعوامل الأخرى أدت إلى حصول لهجات عربية مختلفة في الأقطار العربية. وكان حتماً على اللغويين أن يميزوا بين العربي الصحيح والأعجمي، وهكذا فعلوا. بيد أنهم وجدوا ألفاظاً أعجمية، قد تغلغلت في العربية وتكلم بها العرب ودخلت في أشعار شعرائهم وكتب أدبائهم فلم يمكنهم نبذها فأدخلوها معجماتهم وجعلوها جزءاً من العربية ووسموها بالمعربة، كما وسموا بالمولدة والدخيلة ألفاظاً أخرى التقطوها من ألسن العوام، ونبذوا سائر الألفاظ الأعجمية الجارية على ألسن هؤلاء لاستهجانهم إياها. أما العوام فاحتفظوا بهذه الألفاظ المستهجنة أو بقسم منها، فربما أنساهم كر الدهور بعضها،ولكنه علمهم ألفاظاً جديدة أتتهم من أقوام جدد آخرين، لذا قام طبقة من الأدباء في مختلف الأزمان والأقطار ونبهوا بكتب ألفوها إلى هذه الألفاظ العامية وحثوا على تركها وبينوا ما يقابلها من الألفاظ الفصيحة وحثوا على استعمالها.[1]

صفحة من مصحف بخط كوفي من أواخر القرن الثاني الهجري



---

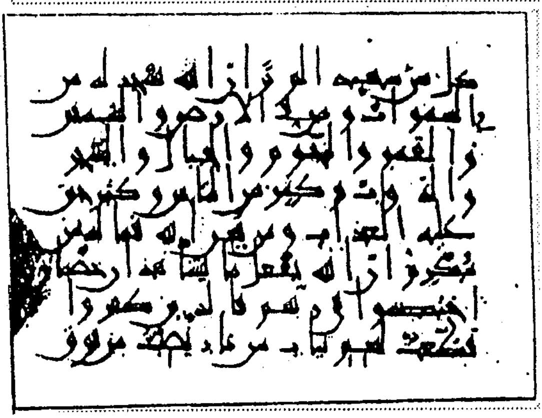
[1] د. داود الجلبي الموصلي: الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية مطبعة النجم الكلدانية ـ الموصل ١٩٣٥ ص٢.

ويمكن أن نورد عن تأثير اللغة التركية في عامية العربية ما ذكره حسين علي محفوظ في ذلك (عرف الناس اللسان التركي في زمن السلجوقيين، وقد انتشرت التركية من بعد، أيام الفتح العثماني خاصة، وتسربت ألفاظها في العامية إذ أوجبها الحاكمون، وفرضها الأمراء، وأظهرها الجند الأتراك على شيوعها لأنها كانت لغة الحكم والقضاء والتعليم والتدريس فذاعت تراكيبها وفشا استعمالها وظلت الناس تلهج بها نحواً من أربعة قرون، وما زالت آثارها موجودة في الألقاب والأنساب والأسماء والتعابير)[1].

وقد أحصى محفوظ حوالي خمسمائة لفظة تركية في اللهجة العامية العراقية، كما يمكننا القول بأن ثمة ما لا يقل عن أربعمائة لفظة تركية في اللهجات العامية العربية المتداولة في شمال أفريقيا وسورية واليمن ولبنان والأردن وحوالي ٣٥٠ لفظة تركية لا تزال تستعمل حتى اليوم في لهجات بلدان الخليج العربي[2].

والللغة التركية التي أخذنا عنها، تطورت في مراحل مختلفة وكانت تتألف من ٣٨ حرفاً وتكتب من فوق إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار[3]، وقد استعمل الأتراك هذه الأبجدية من القرن السادس ق.م وحتى القرن السادس الميلادي حيث حلت محلها الأبجدية الأوريغورية المؤلفة من ١٤ حرفاً والمكتوبة بأسلوب الكتابة الأورخونية أيضاً، وهي مقتبسة من الأبجدية (السريانية ــ النسطورية) التي انتقلت إلى

الجزء الأعلى من صفحة مصحف بخط كوفي (منتصب الألفات من القرن الخامس الهجري) موجود في استانبول



---

(1) حسين علي محفوظ: مجموعة الألفاظ التركية في اللهجة العراقية مجلة التراث الشعبي ــ بغداد ــ السنة الأولى العدد السادس ١٩٦٣ ص٢١.

(2) إبراهيم الداقوقي: التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني، ورقة قدمت إلى: الحياة الإجتماعية في الولايات العربية في العهد العثماني جزءان (زغوان، تونس ١٩٨٨) الجزء الأول ص٣٣٩.

(3) كارل بروكلمان: الامبراطورية الإسلامية وانحلالها ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٥٦ ص٢٧٧.

الأتراك بواسطة الرهبان السريان النساطرة. واصطنع الأتــراك أبجديــات فــي كتاباتــهم اقتبسوها من الأقوام التي اختلطوا بها نتيجة حروبهم معها أو استيطانهم لبلدانها، ومن تلــك الأبجديات: السنسكريتية والفهلوية والآرامية والنسطورية والبيزنطية.

والأخذ والرد بين العربية طال زمانه إلى أن قامت الثورة الكمالية بتبديــل الأبجديــة العربية المستعملة في اللغة التركية بالأبجدية اللاتينية عام ١٩٢٨ ثم تبنت (نظرية الشــمس) في اللغة التركية التي تؤمن بأن التركية هي أصل اللغات جميعاً، والتي قام بموجبها انعيــم حازم أونات عضو المجمع العلمي التركي عام ١٩٣٢ بتأليف كتابه الموسوم (اللغة التركية، أساس اللغة العربية) المطبوع عام ١٩٤٤ في مجلدين، والذي يدعي فيــه إلــى أن اللغــة العربية ما هي إلا صورة مشوهة عن اللغة التركية، لأن تلك اللغة أخــذت عــن التركيــة قواعدها وأصولها وضمائرها وتراكيبها بل جذور كلماتها.

غير أنه لم يكتب لهذه الفكرة-فكرة نظرية الشمس-الذيوع والانتشار في تركيا نفســها، على رغم قيام المجمع اللغوي التركي بطبع المؤلف المذكور خلال فــترة (١٩٤٤ـ١٩٥١) لأن الأتراك أنفسهم انتقدوها قبل غيرهم لأنها نظرية طوباوية لا تستند إلى الأسس العلميــة، ولأن اللغتين العربية والتركية تنتميان إلى عائلتين لغويتين متباينتين: فاللغة العربية هي مــن اللغات التصريفية التي تعد ذروة التطور والكمال في اللغات المعروفة اليوم كاللغات الــهندو ـ أوربية التي تنتمي ـ مع اللغة العربية ـ إلى عائلتين لغويتين مختلفتين، بينما لا تشــكل اللغة التركية عائلة لغوية مستقلة، وإنما هي تنتمي ـ حسب الدراسات اللغوية الحديثــة ـ إلى (مجموعة لغوية) قد تؤدي الدراسات في المستقبل إلــى الأصــول المشــتركة لتلــك المجموعة اللغوية التي يطلق عليها مجموعة اللغات الالتصاقية[1].

تأثر اللغة العبرية باللغة العربية

اللغتان العبرية والعربية، إلى جانب العديد من اللغات الأخرى التــي انتشــرت فــي الشرق الأوسط، مثل الآكادية والبابلية والكنعانية والآرامية وغيرها، تصنف ضمن عائلــة اللغات السامية. ويعني ذلك نشوء هذه اللغات من أصل واحد أسماه العلماء اللغة الســامية الأم، وهو افتراض منطقي لكنه لم يوثق بدلائل ملموسة لحد الآن. وتتشابه اللغتان العبريــة والعربية في العديد من الأوجه،ونجد في اللغة العربيــة (لهجــة قريــش) وفــي العبريــة

---

(١) د. إبراهيم الداقوقي: صورة العرب لدى الأتراك-مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت١٩٩٦ص٢٥.

الكلاسيكية (عبرية التوراة) تشابها في معاني الكلمات، ليس أفصح منه التشابه في أهم كلمة من السطر الأول للتوراة مع كلمة عربية نكررها يوميا: الباري عز وجل، الخالق. وتبدأ التوراة بالشكل الآتي (بريشيت بارا ايلوهيم هاشمايم وهاأرص) وترجمتها ((في البدء خلق الإله (في الأصل: الآلهة بالجمع) السموات والأرض)) والفعل العبري بارا يخلق، وهو الفعل نفسه الذي مصدره العربي الباري.

وعند إزاحة اللغة الآرامية للعبرية كلغة تخاطب، بدأت المرحلة الثانية من مراحل تطور اللغة العبرية التي استمرت لغاية الفتح العربي الإسلامي، وتميزت بتأثير شديد للغة الآرامية، وتميزت بتأثير شديد للغة الآرامية ــ السريانية، إذ كتبت الشروح بهذه اللغة التي أصبحت لغة التخاطب في الشرق الأوسط برمته، وظهرت في هذه الفترة كتب المشناه والتلمود التي تفسر النصوص العبرية للعهد القديم. ومنذ نشوء الدولة العربية وانتشار الإسلام، أصبحت اللغة العربية اللغة السامية الأهم، من بين اللغات السامية الحية آنذاك، والتي أزاحت الآرامية ــ السريانية من عرشها لتحل محلها، ولتصبح اللغة التي تحدثت بها شعوب المنطقة. وهنا بدأ تأثير العربية على العبرية التي حافظ اليهود عليها في محافلهم الدينية، واستعارت العبرية كلمات وتعابير ومفاهيم وجملاً وتراكيب كثيرة من اللغة العربية، إلى أن انحصرت اللغة العبرية في شذرات هنا وهناك.

وفي بحث قيّم قدمه البروفسور آفي شفتيل إلى المؤتمر الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية المنعقد في بودابست عام ١٩٩٨ يذكر عدة وقائع عن تأثر العبرية بالعربية منها:

- تحدث اليهود ــ العامة والمثقفون على السواء بالعربية في أرجاء الامبراطورية كافة وألفوا بها أعمالهم، ولربما استعملوا الحروف العبرية لكتابتها، وبرز موسى بن ميمون (ميمونيودس عند الأوربيون) من بين العلماء اليهود الذين ألفوا دراسات حول الدين اليهودي بالعربية وكتبوها بالحروف العبرية، وتسمى هذه اللغة باليهودية ــ العربية، وهي في أبعد تقدير لهجة من اللهجات العربية المحلية (العامية) مطعمة بكلمات عبرية الأصل هنا وهناك.

يحصي البروفسور شفتيل ٧٠٠ تعبير عربي الأصل في العبرية الحديثة المستعملة اليوم في إسرائيل، وهو رقم في تزايد يوماً بعد يوم.

احتفظت العربية بكل الحروف والأصوات المميزة للغة السامية الأم، ولا شك في وجود تأثير ونفوذ للغة العربية على اللغة العبرية الحديثة التي بدأت تحيا أو يعاد إحياؤها من جديد من ١٠٠عام تقريباً. ومنذ القرن الثاني الهجري (القرون الوسطى) أصبحت اللغة العربية اللغة المحكية المستعملة لدى عامة اليهود الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي، ولم يستعملوا من العبرية إلا القليل من الكلمات وبعض العبارات، واستعمل كبار العلماء اليهود اللغة العربية لكتابة أعمالهم في العصر الوسيط.(١)

على أن سيطرة اللغة العربية على الشرق الأوسط سبقتها سيطرة اللغة السريانية قبل الإسلام، واعتبرت اللغة السامية الآرامية السريانية ما يصطلح عليه لغة التفاهم بين الشعوب، حيث استعملها اليهود للمخاطبة ولكتابة التلمود أحد أهم الكتب الدينية. وكتب اليهود الذين عاشوا في بابل التلمود البابلي الذي هو من كتب التفسير والمشناة وهو تكرار للعهد القديم، لكن باللغة الآرامية، وبعد الفتح العربي الإسلامي للمنطقة حلت العربية محل السريانية، لكن اليهود احتفظوا بالسريانية لأنها لغة التلمود ليس إلا. ومن المعروف أن الآراميين سببوا مشاكل كثيرة لليهود الذين سكنوا فلسطين، وكانوا مسؤولين عن المنفى (السبي) اليهودي المشهور وطرد اليهود من مسكنهم في الشرق الأوسط إلى بابل، وبعد ذلك تبنى اليهود اللغة الآرامية السريانية وهي اللغة التي استعملها المسيح.

لقد كانت اللغة الآرامية منتشرة في كل البقعة العظيمة من أرض آسيا التي كانت تحوي المملكة العثمانية الآسيوية بأسرها إلا بلاد العرب وأرمينية وآسيا الصغرى وفي جانب من مملكة الفرس، ولم تكن اللغة الآرامية في هذه البقعة الكبيرة من الأرض على لهجة ولغة واحدة بل كانت لغاية تختلف باختلاف الأماكن. على أن اللغة البابلية التي هي لغة بابل وآثور وما يجاورهما كان مشهوداً لها بالفصاحة دون سائر اللهجات أخواتها كما هو حال اللهجة المسماة الكتابية اليوم، وذلك يتضح أولاً من شهادة الكتاب المقدس حيث جاء في سفر (دانيال ١: ٤)، أن فتيان اليهود في بابل لم يتعلموا اللغة الآرامية التي جلبوها بعد ذلك إلى بلادهم من الشوارع والأزقة أي من الطغام والعامة ولكن في المدارس بل مدارس الملوك نفسها. ولهجة بابل الآرامية، كما هو معلوم أيضاً، هي اللهجة التي استعملها اليهود إلى مائة سنة ماضية، وكل الألفاظ أو العبارات التي وردت في العهد الجديد اليوناني كانت طبقاً لقواعد اللهجة الآرامية البابلية كما كان جاري الحال في بلاد فلسطين، حيث

---

(١) نقلاً عن صحيفة الحياة ــ لندن ١٩٩٨/٣/١٩ العدد ١٢٧٩٩ ص٢١.

تبين أن السريانية في زمان ظهور المسيح كانت في فلسطين مثلما كانت في زمان رجوع اليهود من جلاء بابل.

علاقة السريانية بالعربية

بعد الذي تناولناه من علاقة اللغات السامية بعضها ببعض، ودخول مفردات كلمات أعجمية إليها، أو العكس، يجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بالتحدث عن علاقة السريانية بالعربية التي سيتضح شكلها بشكل أوسع من خلال الفصل التالي الذي يحوي بعض المفردات التي دخلت اللهجة العربية العامية وبخاصة في اللهجات السائدة في سوريا ولبنان حيث أن الكثير من الكلمات في هذه المناطق تبتدئ بالسكون بحسب اللهجة السريانية مثل خَشْبة، صْغير، حَمْوي، نَزْور، برْيد، ومن الأسماء اللّقَن، القاتول، القرطب، التاقول، الإشكارة، التُرْغل، الدبْور.. حيث أن الكلمة العربية لا تبتدئ بالسكون مطلقاً. وعدا عن إيرادنا لعشرات من أسماء القرى السورية التي أصلها سرياني فإن كلمة زغرتا تعني الصغيرة على سبيل الذكر.

والعربية والسريانية لغتان شقيقتان متحدرتان من أرومة واحدة، متكاتفتان في سبيل النمو والتكامل، مكملتان الواحدة للأخرى، ذلك أن الباحث العربي مهما تعمق في دراسة أصول العربية وآدابها، فإن دراسته تكون ولا شك ناقصة ما لم يطلع على أصول وآداب اللغة السريانية والعكس بالعكس. وقد تآزرت هاتان اللغتان منذ أجيال سحيقة في رفع مشعل العلم والحضارة العالمية، فلا غرو إذن أن تتأثر إحداهما بالأخرى، أو تقرض إحداهما ما تحتاج إليه الأخرى.(١)

وقد تأثرت العربية بالسريانية من جوانب عدة، ولا سيما في الفترة التي ازدهرت فيها العلوم عند السريان وذلك في عهد العرب المسلمين وبخاصة في العهد العباسي، حيث شعر العرب، بعد أن استتب أمرهم كدولة عظيمة مرهوبة الجانب، بحاجتهم الماسة إلى العلوم، وقد كان لهم نهم شديد إليها، فاعتمدوا السريان لنقل العلوم إليهم، لما كانت تربطهم وإياهم من وشائج اللغة والقربى، وكان للسريان آنذاك علماء أفذاذ في شتى الميادين. فشجع العرب مدارس السريان وأوفدوا جماعة من علمائهم إلى بلاد الروم للبحث عن المخطوطات من

(١) المطران غريغوريوس صليبا: اللغة السريانية وآدابها وعلاقتها باللغة العربية المجلة البطريركية ـ دمشق العدد ٦٩ أيلول ١٩٦٩ السنة الرابعة ص ٤٨٨.

الكتب العلمية اليونانية لترجمتها إلى العربية، إذ كانوا قد غاصوا في أعماق اللغات الثلاث: العربية والسريانية واليونانية، وقد انسجم السريان مع إخوانهم العرب واللغة العربية، فشرعوا ينقلون إليها العلوم الفلسفية اليونانية.

ويرى د. أحمد شوكت الشطي أن الفتوحات العربية الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه أدت إلى اتصال العرب بهؤلاء السريان والإطلاع على مدارسهم، حيث وجد العرب فيها ما يرضي نهمهم الشديد إلى العلم فأكرموا السريان وتركوا مدارسهم قائمة في أنطاكية وحران وغيرها من المدن والبلدان، إكراماً للعلم وحفظاً لأمهات الكتب الفلسفية والعلمية التي كانت بين أيديهم والتي كان عدد كبير منها من تأليفهم. ولقد أحب هؤلاء النصارى السريان العرب والمسلمين حباً جماً لما تحلوا به من التسامح الديني والمبالغة في إكرام العلماء واحترام رجاله فبادلوهم الإخلاص والولاء وأسهموا في نقل العلوم إليهم حتى أثرت السريانية في اللغة العربية بعض التأثير فاستعارت الثانية من الأولى بضع مئات من الألفاظ والمعاني المصطلحة والعبارات العلمية بعد أن صقلت بما يلائم قواعد العربية فجرت على يراع الكتاب الثقات ودخلت المعاجم العربية.

ويتابع د. شطي القول: لقد استفاد الأمويون ومن بعدهم العباسيون من مدارس السريان وعلمائهم فوائد عظمى فعهدوا إليهم بترجمة الكتب من السريانية إلى العربية أو من اليونانية إلى العربية، وكانت الترجمة السريانية في كثير من الموضوعات حرفية، ثم تصرف المترجمون دون أن يضيعوا المعنى الأصيل، وهكذا لم يدع السريان كتاباً في الحكمة إلا عربوه. ولقد أدى هذا التماس بين العرب والسريان وتبادل الود والاحترام بينهم إلى أن أفتى رجال الدين من السريان النصارى بتعليم أولاد العرب المسلمين التعليم الراقي. وكان لهذه الفتوى في زمانهم شأن كبير حيث كانت العلوم وقفاً يورثه الأب لمن يجده أهلاً لها من أبنائه كما كان الكهنة لا ينقلونه إلا للممتازين من أتباع دينهم.[1]

وما نقلناه يبين مدى الاحترام الذي كنّه العرب المسلمون للسريان حيث أفتى رجال دينهم بتعليم المسلمين شأن الآباء مع الأبناء، ولعل هذا كان لسان حال ابن خلدون حين قال: (أن العرب الخلَّص لعبوا دوراً صغيراً فحسب في التطور الأساسي للعلوم عند المسلمين، وأن معظم الفضل في ذلك ينبغي أن ينسب إلى الفرس والنصارى واليهود)[2].

---

[1] أحمد شوكت الشطي: السريان وأثرهم في الحضارة العربية الإسلامية ــ المجلة البطريركية ــ دمشق العدد الثلاثون حزيران ١٩٦٥ السنة الثالثة ص٢و ٥٥٣.

[2] ابن خلدون: المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي الفصل الحادي والعشرون ص٧٢٠ مرجع سابق.

بين الحروف والكلمات السريانية ـ العربية

استعارت العربية كثيراً من الألفاظ السريانية حتى أصبحت المعاجم العربية مشحونة بهذه الألفاظ، كما اقتبس العرب الأرقام الهندية من السريان،[*] وكذلك فن الكتابة والخط وبخاصة الكوفي، وتأثر نحو اللغة العربية بالنمو السرياني، ذلك أن أبا الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩هـ ٦٨٨م والذي يعتبر منشئ النحو العربي، كان قد ذهب إلى الكوفة وتعلم هناك السريانية الفصحى واتصل بعلماء السريان، واستعان بهم في أول نحو نظمه في اللغة العربية فنسج في تبويبه على منوالهم[١]، ووضع قواعده على نمط القوانين السريانية، واعتمد كثيراً على السريانية[٢]، ومن أهم كل ذلك استمد الشكل[٣]، أي اقتبس النقاط السريانية التي تميز بها الكلمات، ثم الحركات التي كان قد استنبطها قبيل ذلك العلامة السرياني يعقوب الرهاوي (٧٠٨) وفقدها، وما فعله العلامة ابن العبري (١٢٢٦ـ١٢٨٦) تجاه غراماطيق يعقوب الرهاوي أنه أقدم على اختصاره فقط.

وقد استعارت اللغة العربية من اللغة السريانية جارتها الكبرى، المئات من الكلمات التي أوشكت أن تنيف على عدد الكلمات العربية الأصلية، حتى أن الكتابة العربية ذاتها هي كتابة سريانية محضة، وهذا ما يثبت أن اللغة المعروفة اليوم باللغة العربية هي بتعابيرها وكتابتها سريانية أكثر بكثير من أن تكون عربية. ومع ذلك يمكن القول إن اللغة لا تسمى باسم الكلمات التي استعارتها من أخواتها اللغات الأخرى، من جراء احتكاكها بها لأسباب سياسية أو تجارية أو ثقافية، مهما تكاثرت تلك الكلمات. وأكثر الأمثلة على ذلك اللغة المالطية التي هي خليط عجيب من بضع لغات على رأسها العربية، ويعود ذلك إلى أن اللغات تسمى باسم الشعوب الناطقة بها. واللغات، تتخذ لها خاصة تربط تلك الكلمات المختلفة الأصل، بشكل من التعبير لا يمت إلى غيره بصلة، كما يتضح ذلك في اللغات المالطية والتركية وغيرها من اللغات.

(*) استعملت كل الأمم العتي لها آثار كتابية طريقة لتصوير الأعداد بعلامات، أما السريان فالظاهر أنهم منذ البدء استعملوا لذلك الحروف الأبجدية.

(١) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال ـ القاهرة ١٩١١ ص٢٤١.

(٢) أحمد حسن الزيات: الأدب العربي، القاهرة ١٩٢٥ ص٢٠٦.

(٣) حسن عون: اللغة والنحو الطبعة الأولى الاسكندرية ١٩٥٢ ص٢١٥.

وإذا كانت اللغة السريانية قديمة وتفوق بقدمها معظم اللغات القديمة ولا تغلبها لغة من اللغات السامية وغيرها بالغنى إلا اللغة العربية فقد اتخذت ألفاظاً كثيرة من اللغات الغريبة، وأخص هذه اللغات هي الفارسية واليونانية، حتى أن البعض من رجال الدين السريانيين كانت أسماؤهم يونانية وذلك في بداية المسيحية. وهنا لنا أن نذكر أمراً وهو أن اللغة السريانية لم تتخذ شيئاً يذكر من اللغة العبرانية ولا من اللغة العربية اللتين هما أختاها لانتسابهما معها جميعاً إلى اللغة السامية الأصلية، لكن ملأت خزانتها من عاريات لغتين ليستا من جنس اللغات السامية بل هما متباعدتان عنها كل البعد في الطابع والحال. فيما نرى أن الفرس والترك في عهد الإسلام شحنت كل أمة منهما لغتها وأغنتها بالألفاظ بل بالعبارات العربية مع أنهما مختلفا الأصل والجنس والطبع والحال من اللغة العربية، وسبب ذلك مجاورة هاتين الأمتين لها، خاصة في المعطيات التجارية وغيرها. والجدير بالذكر هنا أن اللغات الآرامية الموجودة اليوم هي نظيفة من الألفاظ اليونانية إلا لفظة (بيعة) وغيرها في اللهجة السورية، أما الألفاظ اللاتينية التي دخلت في اللغة السريانية فهي قليلة جداً إذا ما قابلناها بعدد الألفاظ اليونانية.

واللغة السريانية لها اثنان وعشرون حرفاً وهي حروف أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت التي اتخذ العرب صورها وترتيبها هذا من السريان، ولكتابتها ثلاثة خطوط شائعة اليوم وهي الخط السطرنجيلي والخط الشرقي أي خط النساطرة المعروف عند العامة الكلداني والخط الغربي المستعمل عند السريان وهو المستعمل إلى اليوم في الكنائس والأدبيات السريانية.

ولتوضيح ما ذكرناه واستناداً إلى المراجع التاريخية نقول إن الخط العربي هو ناشئ عن الخط السرياني، ويظهر ذلك من المشابهة القوية بين حروف الخط الواحد الأصلي وهو الكوفي وبين حروف الخط الآخر وهو السطرنجيلي الذي كان شائعاً يوم اتخذ العرب الكتابة، كما يظهر ذلك من ترتيب الأبجدية لدى العرب إذ يقولون أبجد هوز حطي إلخ على نسق ترتيب السريان، والحروف المقطوعة، عما بعدها في الخط السطرنجيلي هي بعينها مقطوعة في الخط العربي إلا الهاء والصاد والتاء، كما يتضح ذلك من عدد صور الحروف فإنها اثنان وعشرون صورة في العربية شأن الحال في السريانية مع أن العربية حروفها أكثر من اثنين وعشرين. ولتوضيح هذا الأمر نقول حين بدأ العرب الكتابة فقد كتبوا في البدء بالخط السطرنجيلي نفسه أو بالنبطي المشتق منه، وإذ كانوا أمة قائمة بنفسها تغيرت

حروف خطوطهم، كما هي عادة الكتابة في كل الأماكن وكل الأزمان ولا سيما الأمم السامية في أمر الخط (كالخطوط الثلاثة في تطور الآرامية المار ذكرها قبل قليل) وزاغت عن حالها الأصلي شيئاً فشيئاً كثيراً أو قليلاً حتى تولد من ذلك الخط الذي كان شائعاً في نحو القرن السابع للميلاد، أي في نحو زمان استيلاء العرب على البلاد وهو الخط المعروف اليوم بالكوفي، ثم تغير هذا الخط نفسه شيئاً فشيئاً حتى أمضى إلى ما هو عليه اليوم وهو الذي يقال له الخط النسخي. ومما يؤسف له في ذلك أن الخط الكوفي إذا نُقط أو أعيد إلى حاله الأصلي وكتب بزخرفة فهو أجمل وأصبح أملأ للعين وأسهل للقراءة من الخط النسخي.

والخط العربي الأول لم يُسَمَّ الكوفي إلا بعد أن عتق وبطل استعماله، وإنما سمي بهذا الاسم نسبة إلى الكوفة وهي مدينة مشهورة في العراق، لأن تلك المدينة كانت دار الخلافة وفيها كتبت أول مرة معظم الكتب الإسلامية.

ولا يعرف الزمان الذي بدأ به العرب بالكتابة، لكن الكتابات الكثيرة المنقوشة على الرقم التي توجد في حوران والنواحي الشمالية من جزيرة العرب اللواتي أهاليهن جميعاً كانوا عرباً والتي هي مكتوبة بالخط السرياني واللسان السرياني، وذلك منذ نحو القرن الأول بعد المسيح إلى نحو القرن الخامس بعده تشهد لنا أن العرب في الأول لم يكونوا يكتبون بلغتهم العربية الآثار التي كانوا يريدون بقاءها لكن باللغة السريانية كما فعلت الأمم الإفرنجية، إذ كانوا في أول أمرهم يكتبون باللغة اللاتينية لا بلغاتهم الخصوصية.

ويمكن القول إنه إلى اليوم لم يكتشف أحد كتابة بالعربية سابقة لعهد الإسلام، وأول كتابة عربية اتصلت بنا هي مكتوبة بعد وفاة الرسول محمد وبالخط الذي يسمى الكوفي. والملاحظ هنا أن الخط الكرشوني الذي هو كناية عن كلام عربي يكتب بالخط السرياني وضعه السريان بهذه الطريقة بعد ظهور الإسلام وانتشاره في البلاد السورية في نواحي القرن السابع للميلاد وذلك ليخفوا أمورهم الدينية والبيعية على المسلمين، وقلما استعمل السريان هذه الكتابة في غير ذلك، وأمكنهم بهذه الطريقة إخفاء أمورهم بهذه الكتابة على العرب لأن هؤلاء في الأصل يكتبون بالخط السرياني، إلا أنه في ذلك الزمان كان الخط العربي قد تغير جداً حتى زال عنه ظاهر الشبه بالخط السرياني.

وإذا كنا قد تناولنا إشكالية الخط العربي وما رافق ذلك من تطوره إلى أن وصل ما عليه الآن والتداخل والاقتباس بينه وبين السريانية فإننا ننهي هذا الفصل بتحليل لتطور

الأحرف العربية وبعدها عن السريانية إلى أن استقامت في وضعها الراهن. فقد استقر عند العرب أن الخط العربي لا يحوي إلا اثنتين وعشرين صورة ولغتهم فيها أكثر من اثنين وعشرين حرفاً لم يخترعوا صُوَراً جديدة للحروف المختصة بلسانهم كما فعل بعض الأمم الافرنجية الشمالية لما بدأت أن تكتب ولا اتخذوا طريقة وضع صورتين أو أكثر من الصور الأبجدية للحروف الخصوصية كما فعل اللاتين لتصوير الخاء والتآء والفآء والرآء اليونانيات وكما فعلت الأمم الإفرنجية الحديثة، إذ لما رأوا أن صور الأبجدية اللاتينية لا تحوي كل حروف لغاتهم جعلوا صورتين أو أكثر من حروف هذه الأبجدية علامة لحرف واحد من حروفهم الخصوصية، وقد سلك كل منهم مسلكاً خاصاً، منها من صور مثلاً الشين التي لا توجد في اللاتينية بالكاف والهاء، ومنهم بالسين والهآء، ومنهم بالسين والكاف والهاء، ومنهم بالسين والزين ومنهم بغير ذلك، وقس عليه سائر الحروف الخصوصية التي إذا راجعنا اللاتينية لا نجدها بها.

ويستغرب المطران يوسف داود، وهو أحد أبرز من درس اللغتين السريانية والعربية في أصولهما النحوية ومفرداتهما وتطور خطهما أقدام العرب إلى تصوير الضاد المختصة بلغتهم ولا توجد في لغة أخرى من لغات العالم، فهم لم يتخذوا لها صورة العين التي بها يلفظ السريان الضاد العربية، لكن اتخذوا لها صورة الصاد التي بها يلفظ العبرانيون الضاد العربية، لأن الصاد تقرب إلى الضاد في لفظها أكثر من العين. وعكس ذلك فعلوا بالظآء فإنهم لم يصوروها بالصاد كما يلفظها العبرانيون، لكن صوروها بالطآء كما يلفظها السريانيون وذلك لأن لفظ الطاء أشبه بالظآء من الصاد. وكان في أول الأمر لكل زوج من الحروف العربية المذكورة صورة واحدة، ثم بكثرة الاستعمال تقاربت أيضاً صور غير هذه من الأحرف إلى صور أحرف أخرى كالجيم إلى الحآء والزاي إلى الرآء والشين إلى السين والقاف إلى الفآء، وتشابهت صور النون واليآء والباء والتآء بعضها ببعض في حشو الكلمة وأولها خاصة. وهكذا وجد كثير من صور الأبجدية كل منها علامة لحرف واحد أو أكثر، وصارت الحروف العربية التي هي ثمانية وعشرون في لفظها يعبر عنها بخمس عشرة صورة فقط وهذا عيب معتبر بالحقيقة ولكنه ينسب إلى الكتاب لا إلى أيمة الأمة. وبقي العرب على هذا الحال زماناً ثم رأوا من الواجب تمييز الحروف المتشابهة الصور المختلفة اللفظ بشيء يرفع الالتباس فاخترعوا لذلك طريقة التنقيط. ولكن بعد اختراع هذه

الطريقة أيضاً كتبت كُتُبٌ كثيرة على الطريقة القديمة أي بلا نقط، وأما اليوم فقلما يكتب العرب شيئاً بلا نقط إلا اسم الشخص الذي يمضي بخطه كتاباً أو غير ذلك.[١]

وهنا علينا القول إن العرب حين أرادوا تصوير حروفهم التي لا توجد في اللغات السريانية لم يرتكبوا هذا الشطط الموجب البلبلة، لكن أظهروا حذاقة فيلولجية فائقة لم يضاهيهم بها أمة من الأمم القديمة، فإنهم مع جهلهم بعلم اللغات وخصوصاً أن لغتهم ولغة السريان أصلها واحد، فإذ اعتبروا أن الذال تقارب الدال في مخرجها اكتفوا بصورة الدال وجعلوها علامة للدال والذال معاً، وكذلك فعلوا بالخاء مع الحآء والظآء مع الطآء والغين مع العين والضاد مع الصاد والثآء مع التآء، وهذه القاعدة التي اتخذها العرب لتصوير حروفهم الخصوصية تتأيد وتتضح صحتها بمقابلة اللغة العربية باللغة السريانية، فإنه من ذلك يتضح أن كل زوج من هذه الحروف التي عددناها يلفظ عند السريان لفظاً واحداً، فإذا ساوى السريان الزوج الواحد في اللفظ في أول الزمان ساواه العرب في الخط في آخر الزمان وهكذا دواليك.

وإذا كان الفصل التالي يبين الكلمات السريانية المتداولة عربياً يومياً، فإن ذلك لا يمنع أن نعطي السريانية نفس الأهمية التي أعطتها إياه الجامعات الألمانية معللة ذلك:

أولاً ــ حتى يستطيع الطلاب الاطلاع على جذور اللغة العربية والعبرانية.

ثانياً ــ لأن اللغة السريانية كانت يوماً ما جسراً مرت عليه فلسفة اليونان إلى الجانب الثاني الذي يمثل الفكر العربي.

ثالثاً ــ أن بعض المؤلفات اليونانية الفلسفية فقدت، ولكن ترجمتها بقيت باللغة السريانية.[٢]

إن اتصال العرب بالعناصر الأجنبية (قد أكسب اللغة العربية مرونة ورحابة وقوة بحيث ظهرت للعالم أول ما ظهرت وهي لغة تامة النضج والتكوين، لغة ذات حيوية، تستطيع أن تتناول العناصر الأجنبية وتهضمها وتمثلها، فلا خوف عليها من أن تنتشر بعد ذلك في العالم، وتتصل بلغات جديدة وثقافات جديدة في مشارق الأرض ومغاربها).

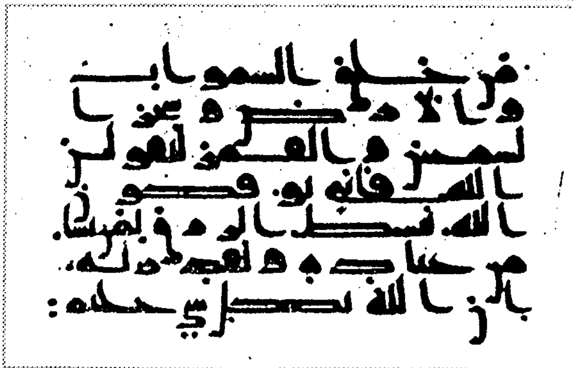
---

[١] المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نمو اللغة السريانية الجزء الأول ص١٤٨ مرجع سابق.

[٢] الأب يوسف سعيد: ما يخص السريانية والسريانيون المجلةالبطريركية ــ دمشق العدد الثلاثون حزيران ١٩٦٩ السنة الثالثة ص٥٥٥.

تلك هي علاقة السريانية بالعربية من جذورها إلى امتدادها، علاقة الشـــقيق لشـــقيقه والأب لابنه،[1] إنها علاقة الأخوة والمحبة بين شعبين اختلطت بينهما بحيث تبادلا أســـماء بعضهما البعض في محبتهما الأبدية.

ورقة من مصحف بخط كوفي منقوط نقط إعراب على الرق
يعود إلى أواخر القرن الثالث الهجري (موجود في فلورنسا)



[1] الدكتور محمد عوض محمد: ثقافة الشرق والغرب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ـــ القاهرة ١٩٥٩ ص٣١.

بعض الكلمات السريانية
المتداولة في حياتنا اليومية

قليلة هي المراجع العربية التي أعطت موضوع مقارنة المفردات العربية بما يماثلها في معاجم بقية الألسنة السامية التي من شأنها تبيان التلاحم والتناسق المنطقي المعقول في سير توسع الألفاظ وتطور مدلولاتها.

ويمكن حصر الكتب التي تناولت الكلمات السريانية وتداخلها مع اللغة العربية، وبشيء أقل مع بقية اللغات السامية، مما اعتمدناه في الصفحات التالية بخمسة مراجع وهي:

البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية نشر المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٥١.

البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية مطابع الكريم الحديثة ـ جونية ١٩٦٩.

المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية جزءان طبع في دير الآباء الدومنكيين ـ الموصل ١٨٩٨.

الخوري اسحق أرملة: القرى السريانية في مدن سورية، مجلة المشرق بيروت السنة الثامنة والثلاثون ١٩٤٠.

د. داود الحلبي الموصلي: الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية مطبعة النجم الكلدانية ـ الموصل ١٩٣٥.

وقد عمل البطريرك برصوم في كتابه الآنف الذكر إلى وضع الكلمة السريانية بنفس اللغة ومقاربا لها باللغة اللاتينية لمعاني الكلمات العربية المأخوذة منها، معرجا أحيانا على بقية اللغات السامية فكان عمله، رائدا في ذلك، حتى يعرف القارئ العربي أبجديات الألسن السامية، وبقدر ما كان هذا الجهد كبيرا فقد نقده الأب (أ. س. مرمرجي الدومنكي)

على ضوء الثنائية والألسنية السامية نقداً علمياً، وسيمر اسم المرجع في الصفحات التالية، وقد خصص ١٥٠ صفحة لذلك متناولاً بعض الكلمات ناقداً نسبتها إلى هذه اللغة أو تلك.

وقد عمدنا في إيراد بعض الكلمات السريانية المتداولة في حياتنا اليومية إلى وضع الاسم السرياني وما يقابله بالعربي، سواء لأسماء بعض القرى السورية ــ على سبيل إيراد بعض الشواهد لأسماء قرى لا يعرف القارئ العربي أن اسمها سرياني الأصل ــ مع ذكر بعض الأمثلة من اللغة العامية (العربية) المتداولة في سورية الطبيعية دون معرفة القارئ كذلك لأصلها السرياني، كما أوردنا بعض الكلمات المتداخلة في أكثر من لغة من اللغات السامية.

صحيح اعتمدنا المراجع أعلاه في تثبيت ذلك، ولكننا أضفنا بعض الكلمات التي لم ترد في المراجع أعلاه مع تصويب بعضها.

وتجنبنا إيرادها باللغة اللاتينية حتى ندع لذوي الاختصاص الرجوع إلى هذه المراجع، ذلك أن قراء الحروف اللاتينية هم من جمهرة المثقفين في بلادنا، ولهذا أوردنا في نهاية الفصل بعض الكلمات العربية، السريانية الأصل وكما تلفظ باللاتينية.

ونتمنى أن يقوم علماء اللغة حق القيام برسم اللغة العربية وأخواتها السامية وإيجاد الأبجدية الصائتة عن طريق المطابع، لتستعمل مقابل الحروف الحلقية وغيرها الخاصة بالعربية وأخواتها، والخالية منها الأبجدية اللاتينية.

ولنضرب مثلاً على ذلك، ففي العربية نقول برأ: أي خلق، بريء من العيوب والديون، وفي السريانية نقول Bra خلق، صنع، اخترع، أخرج، أبعد... إلخ، وفي العبرية Bara (بالألف) برأ، أوجد، خلق، أما في الآكادية Baru صنع، أوثق، قَيْد.

هذا الفعل الناقص مختلف اللام في العبرية وأخواتها. ففي العربية: برى، برأ، بريء، وفي السريانية ينتهي بالألف. وفي العبرية تكون لامه تارة هاء، وطوراً الفاً. وفي الآكادية لا يوجد لا ألف، ولا هاء، ولا همزة، فيقوم عوض ذلك إشباع حركة العين. على أن كل هذا مشتق من الثنائي السابق، وهو (بَرْ)، ودلالته الأصلية، كما ظهر في المادة المتقدمة، هي القطع، والفصل. وهذه الفكرة قد توسَّعت في مشتقاتها، في الفعل الذي يدعوه الصرفيون ناقصاً، أو مهموز اللام.

ولم يجر أول توسع لهذا الأصل الثنائي بزيادة حرف، لكن بمد حركة العين، فجاء من ذلك (بَرَى)، والألف هنا ليست بالحقيقة حرفاً، بل هي علامة لإشباع الحركة السابقة، أي الفتحة. والدليل أن الآكادية المدونة بالكتابة المقطعية لا وجود فيها لحرف في الآخر، بل أن صابئة المقطع الثاني طويلة لا غير. أما السريانية، فالإشباع يجري فيها بالألف وحدها، وأما في العبرية فيتم المد تارةً بالهاء، وتارة بالألف،لأن هذين الحرفين يقومان بوظيفة إشباع الفتح. على أن العربية فيها نبرة الحركة الثانية فتصبح همزة، مما يتولّد منه مهموز اللام. وإذا ما تقرر ذلك، أي أن الأصل هو الثنائي (برْ) الدال على المقطع، والفصل، والنحت، والتشكيل، هان علينا تبيان الاشتقاق. (بَرَى) في العربية، يعني: قطع القلم، ونحت السهم وفي ذلك فكرة القطع. في (بَرِئَ) من المرض، يوجد فكرة الانفصال عن السقم والعودة إلى الصحة. أما (برأ) بمعنى خلق فدلالته الأصلية هي الصنع بالقطع والنحت، ثم خصّص بفعل صنع الله الخلائق من العدم، ومن الصنع نشأ معنى التأسيس والتأليف. وكذا الأمر في مزيدات (برى أو برأ) إذ في سائرها سائدة فكرة القطع والفصل الأصلية في الثنائي. ومن معنى الفصل تولّد مدلول التخيّر، والإخراج، والإبعاد، والنزع، والتجريد، والتطهير والتبرير.

ونرى في العبرية من معاني Barah الأكل ثم الإقاتة ثم السِمن والتضخّم، فهذه كلها سهلة الإدراك ومتساوقة الاشتقاق، لأن الأصل هو القطع. وما عمل الأكل إلا تقطيع المأكولات بالأسنان، قبل ابتلاعها، ومن الأكل تنشأ الصحة، ومن نتائج الصحة، السِمن، ومن فرط السِمن، التضخّم، ويدل فعل Bara و Baru على الميثاق والعهد، وهو Berit و Biritu، بيد أن هذا المدلول عينه ناجم عن القطع والفصل، لأن من عادات الأقدمين، في حفلات عقد المحالفات، والارتباط بالعهود، إنهم كانوا يذبحون الذبائح ويأكلون منها، فسُمّي العمل الاجتماعي باسم الفعل المادي، أي نحر الأنعام التي كانت تجزر في تلك الفرص (سفر يشوع ٩: ٦ي ، سفر القضاة ٣: ٢ ، ١ سموئيل ١٨: ٣، ١٨ : ٢٣) كما أن أصل (القسم) بمعنى اليمين، صادر عن مثل ذلك، لأنه وقت الحلف بالأيمان، كانت تجزر الجذور، وتقسم أشلاؤها على المتحالفين الذين كانوا عند إبرازهم (القسم)، يغمسون أيديهم في دمائها (لسان ٨ ــ ٣٦ ، تاج ٤ ــ ٢٠٣).

ونرى في العربية كلمتي (ابن وابنة) ثم لفظة Bar ، في السريانية والعبرية، وben في العبرية، ففي هذا الصدد يقتضي أن نعرف أن الراء والنون تتعاقبان في اللغات السامية. وعليه يتفق هذان الأصلان في الدلالة، فلفظة Bar التي في العبرية والسريانية تدل على الابن هي من Bara و Bra بمعنى صنع، خلق، أولد، لكون الإيلاد نوعاً من الصنع والخلق.

وأما (ابن) العربية فهي آتية من (بنى) المبدلة من Bara ولها مقابل في الآكادية التي نجد فيها Banu بدلالة (بنى) العربية، ودلالة أولد، لأن البناء ضرب من التكوين على إبدال الرآء من النون هو أنه حتى في الآرامية نشاهد أن جمع Bar بمعنى (ابن) أو مولود هو Bnaya حيث تظهر النون. وكل هذا متضمن في الثنائي (بَرْ) ومبدله (بـن) الدال على الانفصال والاشتقاق عن الأصل والصدور والتولد.[1]

الآن وبعد هذا التبيان لتداخل اللغات السامية مع بعضها البعض نذكر أسماء القرى السورية السريانية الأصل، معتمدين فقط على ما ورد اسمها مسبوقاً أو مجرداً من كلمات كفر، تل، معرة، دير وهي البعض من هذه الكلمات المتداولة وفي محافظتين أو ثلاث من المحافظات السورية، وكنا قد ذكرنا بعض أسماء المدن السورية السريانية الأصل في كتابنا (السوريون والحضارة السريانية)، ولا نود من كتابنا هذا أن يكون قاموساً في هذا الشأن، ولكن لندرة المراجع التي تتحدث عن هذا الموضوع ولصعوبة وصولها للقارئ، ولأن الكثير من القراء عاتبونا في هذا الشأن لعدم معرفتهم لأسماء مدنهم وقراهم ها نحن نذكر البعض منها آملين أن يرى مؤلف الأب المرحوم برصوم يوسف أيوب (الأصول السريانية في أسماء المدن والقرى السورية) النور بعد أن عمل مؤلفه الكثير في تأليفه.

الأصول السريانية لأسماء بعض القرى السورية

كفر أو كفير أو كفرة، أو كفرنايا تعني القرية الصغيرة، وهي كلمة سريانية معربة أكثر ما يتكلم بها أهل الشام وتوافقها الآثورية والعبرية وهي لفظة من اللغة السامية القديمة وتعني أيضاً مَسَحَ، غَسَلَ، طَهَّر، أزَالَ.

[1] التوسع في هذا الشأن راجع الأب أ. س. مرمرجي الدومنكي. معجمات عربية ــ سامية مطبعة المرسلين اللبنانيين ــ جونية لبنان ١٩٥٠.

الكلمة المدونة	معناها بالسريانية	الكلمة المدونة	معناها بالسريانية
كفر حوار	القرية البيضاء	كفر حاب	قرية الشر
كفر حشيم	قرية الآلام	كفر قارص	قرية مرقق العجين
كفر بسين	قرية النفاعية أو	كفر جوم	قرية الجزار أو الحلاق
كفر ناها	قرية الباكي أو المتنهد	كفر نوران	قرية الناري
كفر ناصح	قرية المظفر	كفرتين	قرية التين
كفر بين	قرية العيد	كفر عبيد	قرية المصاب
كفر حداد	قرية الإله حداد	كفر حلب	قرية حلب
كفر حوت	قرية الحق	كفر داعل	قرية الذي أثمر أو أدخل
كفر الصغير	قرية الصغير	كفر أكار	قرية الفلاح
كفر تعال	قرية الثعلب	كفر كرمين	قرية الكروم
كفر نابو	قرية الإله	كفر حمرا	قرية النبيذ
كفر جنة	قرية البستان	كفر حاته	قرية الأخت
كفر حانا	قرية الحضن أو الشفقة	كفر مو	قرية المئة
كفر كيلا	قرية المكيال	كفر دريان	قرية المزّري
كفر غروق	قرية الهرب والرحيل	كفر نتي	قرية الناهد
كفر نبين	قرية الصئبان	كفر نجد	قرية الجلاد
كفر شلايا	القرية الهادئة	كفر ميد	قرية الفرسخ
كفر لاثا	قرية التعب	كفر زيبا	قرية السهم
كفر داهر	قرية السمن	قرية عميم	قرية اللقيط
كفر بطيخ	قرية البطيخ	كفريا	القروي
كفر تغور	قرية التجارة	كفر نوران	قرية المنوّر
كفر بلي	قرية الذي بلي	كفر جالس	قرية الممانع أو المعطل
كفر جالس	قرية الكاشف	كفر صندل	قرية الصندل
كفر فير	قرية الثمر	كفر موس	قرية الشموس
كفر نبل	قرية الاحتقار	كفر رمان	قرية الرمان
كفر عويد	قرية العادة أو المرونة	كفر سبخة	قرية الوثوب أو التشابك
كفر دبين	قرية الدبب أو الذباب	كفر قطار	قرية العقدة
كفر بحني	قرية الإعلان والظهور	كفر راحوم	قرية المحب
كفر عايد	قرية العادة	كفر زبا	قرية الصداقة
كفر تبو	قرية تبو	كفر زيت	قية الزيتون
كفر صفرة	قريةالمصباح أوالعصفو	كفر فان	قرية البستان
كفر غني	قرية الظل والمخبأ	كفر كلبين	قرية الكلاب
كفر بارجة	قرية برج الحمام	كفر رحيم	قرية المحب
كفر حاش	قرية الألم	كفر جبرين	قرية الرجال
كفر انطون	قرية انطون	كفر نايا	القرية الصغيرة
كفر ناصح	قرية المنتصر	كفر روم	قرية الارتفاع
كفر زيد	قرية زيد	كفر بطرة	قرية البيطار
كفر شيل	قرية المصدوع	كفر بطنا	قرية الجنين
كفر حور	القرية البيضاء	كفر سوسة	قرية السوس
كفر قوق	قرية الخزف	كفر نبودة	كفر النوافذ

أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة معرة

معرة أو المعرة، معارة، مغارة، معرتة هي من الألفاظ التي توافقت فيها اللغات السامية السريانية والعبرية والعربية في حرف الغين، والمعرة كلمة سريانية محرفة من (مَعَرتّا) أي المغارة.

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني
معراتا	المغائر	معارات الأثارب	مغارة الشحم
معارة المسلمية	مغارة المسلمية	معارة خان طومان	مغارة خان طومان
معرمايا	مغارة الماء	معرة الشلف	مغارة الشيخ
معرة الشمالية	المغارة الشمالية	معرة دبسا	مغارة الدبس
معارت عليا	المغارة العلوية	معرت مصرين	مغارة المتثائبين
معرة حرمة	المغارة المحرّمة	معرتماتر	مغارةالسفودأو المحراك
معرزيتا	مغارة الزيت	معرتشمارين	مغارة اشقي السهام
معرصين	المغارذات الرائحة الكريهة	معرشمشا	مغارة الشمس
معرشورين	مغارة الأسوار	معرونة	مغارة صغيرة
معلولة	مدخل	معرشحور	مغرة سوداء

أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة دير[*]

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني
دير نته	الدير الصغير	دير صليبا	دير الصليب
ديرون	الدير أو المسكن الصغير	دير رمانين	دير الرمان
دير حشان	دير الميناء الكئيب	دير سيتا	دير الكرمة
دير كروح	دير الصوامع	دير مقرون	دير الزنبيل

[*] الدير هو المسكن أو المنزل الذي يسكن فيه جماعة من الرهبان.

أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة تل

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني
تل دادين	ربوة الأحباء	تل حديا	ربوة الصدر أو الفرح
تل أفراح	ربوة من طير	تل سلمو	ربوة سلمو
تل نيشين	رابية النساء	تل جبين	تل الآباء
تل سوسين	تل الجياد	تل نيشا	ربوة العلم
تل تينا	تل التينة	تل عقبرين	ربوة الفئران
تل عدا	من ركض وتخلص، تل النجاة	تل أيوب	ربوة ايوب
تل تورين	ربوة الثيران	تل ثروان	ربوة الناقع الصغير
تل دبس	ربوة الدبس	تل دم	ربوة الدم
تل شيخ	ربوة	تل سفير	الربوة الجميلة
تل حبش	ربوة السجن	تل فيتا	الجميلة
تل فتايا	تل العريض	تل عمري	تل الديورة
تل علايا	تل عال	تل دادين	تل الأعمام
تل عمار	تل الساكن	تل عداي	تل الغرباء

بعض الكلمات السريانية العامية المتداولة في سورية الطبيعية(*)

الكلمة المتداولة	معناها بالعربي	الكلمة المتداولة	معناها بالعربي
اتغندر	تبختر، تمايل في مشيته	ابتلش	ابتلي، تحرش
إيد	يد	التلميذ	الطالب
التنور	الكانون الذي يخبز فيه	القش	التبن
الحنّان	بتشديد النون: ذو الرحمة	الدالية	الكرمة
السبت	اليوم السابع من الأسبوع	إيدَيك	يداك، معنى إنها تعني الجمع
بكّير	باكراً	بربر	صوّت

(*) من الملاحظ أن أحرف ث، خ، ذ، ض، ظ، غ، الموجودة في السريانية إنما هي تركيخ لأحرف أخرى موجودة في السريانية وهي: ت، ك، د، ج، وهو ما عُمل به في اللغة العامية.

الكلمة المتداولة	معناها بالعربي	الكلمة المتداولة	معناها بالعربي
برخمور	بارك ياسيد	برا	براني
براني	خارجي	برشامة	خبزة التقدمة
بركة	بركة ماء	جوا	داخلاً
جواني	داخلي	جب	بئر
خبزر أو زنجر	صدئ	دعك	عجن
دقر الباب	اقفل الباب بالمفتاح أو بشيء آخر	دقن	لحية، مجتمع اللحيين من أسفلهما
دكر	ذكر	دبح	ذبح
دبق	لصق	هدس	فكر
وعد	موعد	ورور	وروار
واوا	وجع، ألم	زبون	مشتر
زفر	قذر	زريعة	الأرض المزروعة
طرش	لطخ	طرطش	رش
طاسة	وعاء	يابو	يا أبي
يامو	يا أمي	كمش	قبض
كداب	كذاب	كيله	مكيال
كم	بضعة	لطي	كمن
منيح	حسن	مي	ماء
مسكين	فقير، ضعيف	قضية معسه	مشوشة
محبوكة	مخلوطة	ناطور	حارس
نكش أو نبش	حفر	شقف	هشم
منتوش	ممزق	شرش	الأصل، الأساس
ندر	النذر	نهش	عض
سكر	أغلق، أوصد	سميد	لب الحنطة
عتيق	قديم	فرم	قطع
فشخ أو فرشخ	فرج بين رجليه	فطر	أكل وشرب
فشر	كذب	تفشكل	صدم
فصفص	جرد العظم	فار	احتد، غضب
صفف	صف، نظم	قش	جمع
قاق	غراب	قاتولي	مميت
قوم	قم، انهض	قرقش	قضم
قرمة	أصل الشجرة	ريق	لعاب

الكلمة المتداولة	معناها بالعربي	الكلمة المتداولة	معناها بالعربي
ريس	رئيس	ريحا	رائحة
شبط	ضرب	شوب	الحر
شلح	نزع ثيابه	شقفة	قطعة
شلف	نزع	شقل	حمل
تنورة	ثوب واسع	دانَ	حكم
حرّيف	حاذق ولاذع	حانوت	دكان
جرجير	بقلة تنبت، في المنافع	جبّار	جبروت
تكة	رباط السراويل	تاج	إكليل
خبيص	حلواء من سميد وسمن وعسل	دجال	الكذاب المموه
درابزون	قوائم خشب أو حديد	درب	طريق
دمية	شبه، شكل	رب	سيد، رئيس، زعيم
رصد	رَقَبَ	رَقّ	جلد رقيق
زفت	القار	زورق	سفينة صغيرة
سبَّح	سبّح الله وسبح له	سَرْوُ	جلس شجر حرجي
سقِلة	غوغاء الناس وسقاطهم	سَوَط	قضيب
شاطئ	الساحل	طور	الجبل
عكوب	نبات بري	عِنّين	بكسر العين وتشديد النون العاجز عن الجماع
غبي	قليل فطنة	غِلام	فتى
فرط	فرد حب الرمان مثلاً	فشّ	أرخى الكلام
كازوزة	زجاجة، قارورة	كُرّاس	الجزء من الكتاب
كوب	قدح	كوة	طاقة، نافذة
لبيك	إجابة	مَلاّح	قائد السفينة
ناطور	حافظ الكرم والنخل	قرمية	الأصل
مفشكل	أعوج	زغير	الصغير
زغلول	فرخ الحمام والحجل	كرشْ	عرق العظام
قرعلو راسو	قص الشعر	هَساء، لسا	الآن، الساعة
دُح	دُقّ	فُروق عني	ابتعد عني
فرصة	وسيلة، واسطة	كَرَز	وعظ
كفَّر	مسح، ظهر، أزال	كبّ	قلبَ، أراق
قبض	أمسك	رَعّمَ	غطى، سترَ

وما قدمناه هو غيض من فيض لكلمات عامية نتداولها يومياً، وسنورد فيما يلي خمس كلمات، سريانية الأصل، دون التعريف بها، فهي معرّفة نفسها بنفسها، وهي: البهي، الصابون، الشراب، البلغم، البلاط.

إننا اليوم نتناسى كل هذا فنرجع الغريب إلى أصل عربي فقط، فنرتكب بذلك خطأ، كما لو كنا نقول: إن القصب وقصب السكر والقنا (البامبو أو الخيزران) شيء واحد، فالقصب هو قصب سكر، فقد حلاوته، والقصبة هي خيزرانة إلا أنها دقت وضعفت.[1]

ونحن على هذا الأساس كنا نتحزر: من أين نحتنا كلمة هسّه؟ والجواب السريع هو من عبارة: هذه الساعة.

وكنا نقبل هذا الشيء قبل أن نعلم أن هشّة في السريانية هي الظرف الوحيد لمعنى (الآن) ولا يوجد في السريانية ظرف آخر بهذا المعنى (العهد القديم بالسريانية).

ولنذكر من عامياتنا ما يتداول في كل المناطق السورية الأصل مثل: (منو) وهي سريانية بمعنى: من هو، وكلمة (هاي) بمعنى: تلك... سريانية أيضاً، وكلمة (منهي) هي سريانية بمعنى: من هي؟.. وهي قريبة جداً من أختها العربية. كما يقولون (كِتب) بمعنى كتاب أو مكتوب بالعامية، ونقول (إلك) بدلاً من لك، وهي سريانية وآرامية في الوقت نفسه، ويلفظونها في بعض مناطق العراق: يلك، أي بحرفية الكلمة السريانية التي هي ياء ولام وكاف، فقسم، والسريان يبدؤونها بالسكون فتكون: إلك، أو إلخ، بلهجة بعضهم. ونجمع (أب) في عاميتنا على (ابهات) بدلاً من آباء، وابهات هذه هي جمع أب سريانية وآرامية، أي الآباء الروحيين في السريانية والآباء بصورة مطلقة في الآرامية.

والأسماء التي ذكرناها مع غيرها الكثير تجد صعوبة حتى بين المثقفين لنطقها بصورة صحيحة، بحسب موقعها من الإعراب، فالسوري يستثقل إبدال الواو بالألف والياء، وهو يقول: سلم على أبوك، وعزيزي أبو خلدون.. هذا السوري له جذور آرامية سريانية، القاعدة في هاتين اللغتين.

وفي العراق ينادون (ابنادم) بلفظها كلمة واحدة، وابنادم تعني الإنسان.. إنها سريانية، وليس لهذه اللغة كلمة لإنسان غيرها، والعوام، وبخاصة في جنوب العراق يستعملونها بدلاً

---

[1] لميعة عباس عمارة: رواسب السريانية في العامية العراقية ــ مجلة التراث الشعبي ــ بغداد عدد ١٠جزيران ١٩٧٠ ص٢٤.

من إنسان بكثرة. وفي بعض مناطق سورية يقال (اتّن) وهي كلمة مدغمة مخففة النون، ولكنها سريانية كاملة جاهزة بمعنى: انتن، بلا ثقل ولا تخفيف. ونقول (بت) بدلاً من بنت، والغالب أنها مختصرة من بنت، ولكنها آرامية بهذا المعنى تلفظ: بت وبث، باعتبار التاء والثاء حرفاً واحداً في الآرامية والسريانية.

وتعني كلمة (بر)، (الابن) في الآرامية والسريانية وتجمع على (بنين)، ويجمعون أنثى، أي امرأة أو فتاة، على: نشا(ن). وبنين نسا جمع لا نعرف له مفرداً، فنقول: بنين، ملحقة بجمع المذكر السالم ونساء (بزيادة الهمزة للفصيح) جمع لا مفرد له من لفظه، وهما جمعان سريانيان مستعملان في العامية العراقية، بنين بالياء فقط، ونسا بدون همزة. وفي الآرامية والسريانية عندما يضيفون: بنين يحذفون النون، فيقولون: بني هرون، كما نقول: بني لام وبني مالك، وبكسر باء: بني في كلتا اللغتين.

كما نرى في عامية العراق، على الأكثر، يقولون (عِد)، وحتى في لغة الشام وبيروت تستعمل هذه الكلمة، وهي ظرف زمان ومكان سرياني، حيث نقول: خليت الفلوس عد العطار (مكان) وعدما رحت.. (زمان)، وهذه من عامية جنوب العراق.

وكلمة (كِل) سريانية أي (كُلْ) العربية، وتعني تناول الطعام، وكلمة (لقبل) أي المقابل سريانية، وتقول العامة وعلى حسب المناطق: الكبل والكَبال وتعني المقابل، وكلمة (بينلت) السريانية تعني: (بين) العربية الفصيحة، ومع أنها أكثر حروفاً من بين وأثقل نطقاً إلا أن العامي يستعملها كثيراً.

وكنا قد ذكرنا في الجدول المتقدم كلمات براني وجواني، وهنا نضيف أن كلمتا (لبرّ) و(لجوّ) أي للخارج وللداخل هما سريانيتان ولا صلة لهما بالبرية والأجواء. أما كلمة (ها) فيستعملها العامة بكثرة بدلاً من نعم، حتى أنهم يتنعمون على من يقوم: نعم، وها، هذه تستعمل في النداء والجواب في السريانية أي بمعنى يا ونعم. وكلمة (ساف) بمعنى انتهى سريانية، يجبرها على أن تكون من سف اسفافاً، ونحتال عليها لتكون كذلك. والعامة تقول (ايمتي) أو(يمته) أو (ليمته) ونتصورها من أي الاستفهامية ومتى الاستفهامية. وأي متى لا تصلح أن تكون أصلاً لهذا اللفظ، وهي لفظة سريانية بمعنى متى، أما لأي متى المزعومة فلم تثبت عروبتها في نص أو شاهد. والجواب على : يمته لهسه أي : للآن وإلى الآن. وظرف تحت العربي لا يحتاج إلى لام ليؤدي معناه، ولكننا نجد البعض يقولون: لتحت، وهي سريانية تعني تحت، فقط.

أما كلمة (مِنَهْ) وهي سريانية فتعني منه، وليست مشددة النون من الفصيح، إنما هي أصل هكذا في السريانية. وكلمة (بثري) سريانية تعني بعدي، وبثرأي: بعد، فيقولون نجمه بثر نجمه حسبته. أي نجمة بعد نجمة حسبته، وتعني كلمة صد أو سد السريانية: بجانب، ويقول العامة: كاعد بسد الباب يكسر الخاطر. ونقول: ألا والا (إلى) ونعنى إذا، ثم نتصورها تحريفاً: عن إذا بإبدال الذال لاماً، والواقع أنها بهذا الشكل تلفظ في السريانية وبمعنى إذا، وليس هناك إذا غيرها. ولدينا كلمة (الله) ــ ليست اسم الجلالة، وإن كانت بنفس اللفظ ــ أو: الاّ بتفخيم اللام، ونعني بها لكن، وهي سريانية الأصل. كذلك الحال بكلمة (كَد) السريانية التي تعني حيث وحيثما المستعملة في العامية: كَد أكتب. وبعضهم يقولون كَاعد أكتب، وحتى كاعد اركض، وبعضهم يختصرها اكثر فيقول: كَيكَتب أو ديكتب، والمعنى: إذ هو يكتب، وحيث هو يكتب.

ومن الملاحظ في العامية (التعدية باللام) للفعل المتعدي أصلاً فيقولون: كَتله للولد، شفته لخوك، واللام هذه تتصل بالمفعول به في السريانية للدلالة عليه وتمييزه. ويعدون الفعل في السريانية أحياناً باللام والضمير المناسب، مثل: جالهم خطأ، وجاله نزول. كما نستعمل كلمة (أكُل) وهي فعل أمر من أكل، وهذه نفس صيغة الأمر للفعل في السريانية. وتميل العامة إلى الياء في إعلال وإبدال الفعل الناقص المتصل بتاء الفاعل: غزيت ودنيت وسميت (غزوت ودنوت وسموت) ذلك أن العامة تتبع السريانية للفعل الناقص. ونلاحظ أننا لا نبدل الصاد زاياً في العادة، كما نبدل القاف كافاً، ومع ذلك نقول: زغير، بدلاً من: صغير وهي كلمة سريانية ونحسب أن الصاد فيها مبدلة بزاي.

والمقارنة بين هذه الكلمات كبير جداً، بين الأصل السرياني والعربي، لنورد بعض الكلمات في ذلك قبل أن نقفل الكلام في عاميتنا ونسبتها إلى السريانية.

نحن في حياتنا اليومية نستعمل كلمة (ست) وهي التي تعني السيدة أو الآنسة المعلمة، وهي ليست عربية أصلاً إلا أن الفيروزبادي أجهد نفسه بتفسيرها فقال (سِتّي) تقال للمرأة، أي يا ست جهاتي: شرق وشمال وجنوب وغرب وفوق وتحت، وهو تخريج مضحك لكلمة كانت تستعمل في عهد ثمود وتعني: السيدة.[1]

إن السريانية لا تهمز الآخر، فيقولون قرا (قرأ)، وهكذا كل ممدود ومهموز الآخر، وقص على ذلك في تشطيب الهمزة والمتأخرة كمثل: نجلاء، نجله وسماء سمه، حتى قيل

---

[1] لميعة عباس عمارة: رواسب السريانية مرجع سابق ص٢٥.

في المثال (سمه ومه وليلة الظلمة) أي سماء وماء وليلة ظلماء. وكذلك كسر حرف المضارع مشهور في العامية، إذ يقولون: نِدرس ونِكتب، نِلعب، وهذا سرياني، والتأرجح بين حركتين كما في يُوم وبيت وجوزَ متبع في السريانية، حتى أنهم يكسرون الألف، ويصعب علينا أحياناً قراءة الكلمة الآرامية أو السريانية للخلط بين كسرتها وفتحتها وبخاصة في أواخر الكلمات، والابتداء بالساكن متبع في السريانية، وهو كذلك مألوف في العامية كقولهم: انشاهد، الحب، أحسين، امحمد، ونقول اذني بكسر الهمزة بدل ادني – آرامية، اِدني واسم الفاعل من غير الثلاثي مكسور الميم في السريانية مطلقاً مثل اللفظ العامي: مِتمدن، مِتعلب.

ومع كل الذي ذكرناه، فإن اللغة العامية التي نتداولها لم تكتف بأخذ كلمات من السريانية بل اقتبست أشياء هي من خواص هذه اللغة، ويمكن تقسيم آثار السريانية إلى ما يلي:

ففي الآثار الصرفية تسكن العامة آواخر الفعل فتقول (أكل، كتب، ياكل، يكتب) خلافاً للعربية وتبعاً للسريانية. ونلفظ الأفعال التي على وزن تفعّل وتفاعل بصورة إتفعل وإتفاعل، فنقول إنكسر، وإنقاتل عرض تكَّسر وتقاتل، وهذا يشبه السريانية. وتبقي حرف العلة في صيغة الأمر من الثلاثي الأجوَف، فنقول (نام) و(بيع) و(ترب) بدل نم وبع وتُب، وهذا ينافي العربية ويوافق السريانية. وتأتي أسماء الآلة في العربية على وزن مِفعل ومِفعلة غالباً، أما في الدارج فهي على وزن مَفعل كقولهم (مَعوَل) و(مَجرفة) و(مَنْقب) على مثال اللغة السريانية.

ونرى العامة تصغر، ولو نادراً، بالواو والنون كما في السريانية، كقولهم (زْغَيْرون) بدل صُغيّر للتحبب، و(بْزَوْن) بدل بُسيس في تحقير بس، و(حمدون) تصغير حامد، وهو اسم علم. وبتأثير السريانية أيضاً كثيراً ما يبدلون الواو ياء في الأجوف الواوي فيقولون (قيّم) و(نَيّم) في قوّم ونوّم، وبعضهم لا يلحن فيه بل يقوله على وجهه العربي التام.

ونتتبع من القواعد العربية أن الفعل إذا تقدم الفاعل لا يطابقه في الجمع والتثنية بل يبقى على افراده، أما في الآرامية السريانية فيطابقه في الإفراد والجمع. وقد تابعت العامة القاعدة السريانية فتقول: راحوا اخوتي، وكان الأجدر أن يقال راح إخوتي. وهذا النوع من تأثير الآرامية السريانية وقع في القديم للعرب المحتكين بالأقوام الآرامية كعرب الحيرة وشمالي الحجاز، وعرفته النحاة وسمته: لغة أكلوني البراغيث[1].

---

[1] د. داود الحلبي الموصلي: الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية مرجع سابق ص٢.

والعامة يسكنون أحياناً أوائل الكلمات، وهذا كثير في السريانية، أما في العربية فلا تبدأ الكلمة بساكن قط، وذلك بقولهم كْبير في كَبير وحْصان في حِصان، وعْيون في عُيون، ولا ضابط في هذا الخصوص فإنهم يسكنون أوائل بعض الكلمات ولا يسكنون الآخر.

بعض الكلمات السريانية المتداولة وبجانبها لفظها باللاتينية

إن اتساع تداول اللغة السريانية في حياتنا اليومية كبير بحيث لا تتسع له مجلدات، ولهذا سنورد نماذج أخرى لهذه اللغة العظيمة المتداخلة في حياتنا اليومية مع إيراد اللفظ اللاتيني لها للتأكد مما سنورده آخذين بالملاحظات التي وضعها البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث لذلك في كتابه (البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية).

تراعى في اللاتينية الشدة بحسب اللهجة الشرقية لاتفاقها واللهجة العربية، كما يستعمل حرف Q للقاف، وCh للشين، ويستعمل حرف H للحاء، وT للطاء، وS للصاد مع التنويه بذلك، كالقول ــ على سبيل المثال: Tbah بالطاء والحاء أي أن T هي طاء بالسريانية وH هي حاء، كما يستعمل الحرف Á للعين إذا جاءت مفتوحة و É إذا جاءت مكسورة، وÓ إذا جاءت مضمومة، كما تستعمل الفتحة الشرقية حفاظاً على تركيب الألفاظ، فيما عدا فعل الماضي في الأجوف، تمييزاً له عن المضاعف، وأحياناً في فعل الناقص أيضاً.

ويلاحظ هنا بعض الألفاظ السريانية التي دخلت العربية عن طريق حرفي P وV، أو الألفاظ التي دخلت العربية عن طريق قلب الجيم إلى حرف الكاف أو القاف، والألفاظ التي دخلت العربية بالنون عن طريق الشدة الشرقية، ويلاحظ كذلك أن الحروف الأسلية في العربية وهي: الزاي، السين، والصاد، تضاف إليها في السريانية الشين أيضاً. والحروف النطقية في العربية هي التاء، الدال والطاء وأما في السريانية فتضاف إليها اللام والنون أيضاً. والحروف الحلقية في العربية هي: الهمزة، الحاء، الخاء، العين، الغين، القاف، والهاء، أما في السريانية، فهي الهمزة، الهاء، الحاء، العين، والراء. وهناك مشكلة هذه الحروف، اختلف لفظ كثير منها في اللغتين اختلاف لهجات الشعوب الناطقة بهما، بحيث أضحت الزاي في اللغة الواحدة سيناً أو شيناً أو صاداً في اللغة الأخرى وبالعكس، والتاء دالاً أو طاء وبالعكس، والحاء والعين أحياناً هاء أو همزة.

ويلاحظ كذلك ألفاظ جاءت سينها شيناً في العربية، أو جاءت صادها ضاداً، أو طاؤها ظاءً أو صاداً، وكافها قافاً، وحاؤها خاء، وعينها غيناً، وهناك ألفاظ محرّفة مثل إبدال الراء بالدال وبالعكس، والباء بالميم، والميم بالدال، والنون باللام.

وهناك كلمات أتت معاكسة تماماً لمعناها في الأخرى من حيث المبنى، فكلمة lahma بمعنى الخبز، على حين أن لفظة اللحم العربية تعني غير الخبز، أو الفول (صوغة) بدلاً من صورة، أو حذوف حروف من الألفاظ مثل lmina أي الميناء، kahta: النكهة.

Ma'arta	المعرة: المغارة	Kmas	انكمش
Tegrit	تكريت أي التجارة	Sab	شبّ: تلظي، اتقد
Palatin	البلاط، بالطاء	Srad	شرَدَ: تاه
Pchita	البسيط المنبسط	Swi	ضَوِيَ: ضعف، هزل، نحف
Makka	مكة أي الارض المنخفضة	Tabba	الضب: حيوان من الزحافات
Hirta	الحيرة: القصر	Rbaq	ربَك، شبَك
Paya	البهي	Hala	الخال
Zevta	الزفت	Qalha	القلخ: الهائج
Kouva	الكوفة أي الشوكة	Nsak	نسخ: نقل، خط
Gam	غمَّ: غطي، ستر	Tuyana	الطغيان
Rghiba	الرغيب: الواسع، الفسيح	Kababa	الكَبّ: نبات
Efara	الغفارة: العمامة	Qatya	القثاء، بالطاء والثاء
Ara'a	الأرض	Choughla	الشغل
Bie'ta	البيضة	Debaba	الذبابة
Dra	ذرى	Mara'a	المرض، المريض
Draa'a	الذراع	Burga	البرج
Batika	البطيخة، بالطاء	Grad	جَرَدَ: عَرَق العظم
Githara	القيثار	Gar	جرى دمعه وسال
Tawba	الثائب من البحر، ماؤه الفائض بعد الجزر	Hougbana	الحاجب، بالحاء
Tartar	ثرثر: أكثر الكلام	Taggen	طَجَن، بالطاء
Zibaq	الزئبق	Souga	الساج: الحور الأسود
Geza'a	الجذع ، بالعين	Fargi	فرّج: وسّع وكشف الغم
Hsan	حصن، بالحاء	Sanga	الصنج، بالصاد
Sgar	زجر	Ragla	الرجْل
Saybar	صبر، بالسين	Taga	التاج
Qatifta	القطيفة (المخمل) بالطاء	Limsa	النمس
Beroula	البلور	Kbar	كبرُ
Qalma	القملة	Kwa	كوَى: أحرق
Mayzara	المئزر: الإزار	Melaa	الملء
Mara	المرء: السيد	Sbaba	السبب
Sitla	السطل، بالطاء	A'ayna	العين: ينبوع الماء
Elaya	العلي: الله تعالي	Sba	صبا، شاء
Sda, Sdi	صَدِئ: علا الصدأ الحديد	Sourta	الصورة: العقلية، التصوّر
Qab	قبّب: تغيب البناء	Gaba	القبقاب
Assel	أصل: ارجع، أعاد	Sram	صرَم: قطع
Rmaz, Remza	رمز: أشار إلى وغمز	Tamtem	تمتم: عجل في الكلام ولم يفهم

ألفاظ توافقت فيها العبرية والسريانية والعربية:

معلول، غبي،شيح، عرش، سلة، تنين، بطيخ، علقة، مذبح، مجلة.

ألفاظ توافقت فيها الآثورية والسريانية والعربية:

تمساح، دلو، غزالة، كبريت، سمسم، ذكي، بلور، دلّو، سلط، ثعلب.

ألفاظ توافقت فيها الآثورية والسريانية والعبرية والعربية:

عنب، عمود، سافر، نهر، نبع، قطن، سنة، ذبابة، برق، نجار.

ألفاظ يونانية الأصل اقتبستها السريانية وعن طريقها أخذتها العربية:

انجيل، اسفنج، جنس، فندق، طُغمة، موسيقار، ناوس، نوتي، قانون.

لفظة توافقت فيها الآكادية واليونانية والفارسية والسريانية والعربية:

نفط.

ألفاظ سامية:

بريد، حلا، يمين، وقار، هيكل، نون، بيت، بقر، أمة، حمار، سهر.

كلمات سريانية اندمجت بالعربية وتعتبر مستعربة:

المؤمن، النبي، قرية، دير، دفتر، مدينة، سكينة، بنى، بنيانا، آمن إيماناً، بارك بركة، بشر بشارة، تاب توبة، سجد سجوداً، صلى صلوة، صام صوماً وصياماً، عرب، عروبة، عراب، فاروق، عمارة، مقاليد، عيد، حج، توراة.

كذلك كلمات: الله، رحمن، اللهم، قدوس، قيوم، مسيح، روح القدس، قديس.

وأيضاً ما ينتسب إلى النون: نصراني، رهباني، جسماني، روحاني.

والفاظ مختومة بالتاء الطويلة: ناسوت، ملكوت، لاهوت، جبروت، كهنوت، حانوت.

وأسماء شجر ونبات: رمان، زيتون، زعرور، كمون، بطيخ، وغير ذلك.

الألحان السريانية السورية

حين يسمع أحدنا الألحان السريانية يكون في صلاة وابتهال، ومع شفافية هذه الألحان نكون في اتصال مباشر مع الكون وأسراره.. في لقاء مقدس مع الخالق.

السر في الألحان السريانية أنها لا تدفعك إلى التصفيق بل إلى الصمت والتأمل والخشوع والوقار، لأنها تنقلك إلى نورانية باهرة حتمت على نفسك السجود، فتشعر عندها بالفرح والسعادة والطمأنينة والهدوء والسلام.. تشعر أنك ذلك المخلوق الذي يتلمس طريق المعرفة ليتبين نفسه ويدرك حقيقته أمام عظمة الإله.

الألحان السريانية وجلها ألحان كنسية توحي لنا بصعود نحو فردوس ذي صبغة روحية متزايدة مع غزو الإنسان سمته الروحية الخالصة، وهذه الوظيفة التي هي بآن واحد وظيفة كونية وأخروية ونفسية وعلاجية، وظيفة تصعدية.

والصلة بين الألحان السريانية والأرض السورية كما هي صلة الأم مع طفلها، من الموضوعات التي تعنينا بوجه خاص، ومن الواجب لفهم هذه الصلة فهما كاملا، أن يكون المرء على جانب من العلم لا بتطور الموسيقى العربية، بل أن يكون كذلك على علم بحالة الثقافة والمجتمع في سورية إبان العصر الآرامي ــ السرياني، حيث النغم هو حضور، إنه كالفعل، يخلق نفسه في اللحظة بحركة حالية، لكننا نحيله إلى عدم إذا حصرناه في الآنية المحضة. إذ لا توجد إلا نسبة ما تربط في استمرارية لا تنقطع سلسلة تموجاته المتعاقبة، التي لا نستطيع أن نسمعها ونفهمها مالم نجمع في حلقة واحدة ما تم إنجازه، ومايُنجز، وما سوف ينجز، والتي لا نلاحظ اندماجها هذا لأنها قريبة من الفكر لدرجة أننا لا نقيم أي تمايز بينها وبينه. إن أصداءها الراهنة تنضم بسهولة إلى أصدائها السابقة بما أنها معاصرة لذكراها الخاصة التي هي أيضا نغم. إننا لا نرى الحاضر يصبح ماضيا لأن القبل يستمر في البعد، اللحن الحالي يحوي في داخله على كل الألحان السالفة التي يستمد فيها معناه، مثلما أن يومنا يغتني بكل تاريخنا الغابر، الموسيقى هي دائما علاقة بين ذاكرة ونسيان، بين حسرة ورغبة، بين حنين وأمل، بين تملك وانتظار، وواسطة العقد بين ما انتهى وما لم يبدأ بعد.

ماهية السلم الموسيقي السوري

تم وضع السلم الموسيقي السوري التاريخي من الألحان الثمانية التـي تسـتعمل فـي الكنيسة السريانية الأنطاكية، ومنها انبثقت جميع الألحان الموجودة في العالم، والتي تكلـم عنها وقدرها الموسيقار الكبير (الفارابي) بحوالي ٣٠٠٠ لحن.

وتبقى الألحان في الكنيسة السريانية على القيثارة السومرية التاريخيـة الخـالدة ذات الأوتار السبعة أساساً، ويبدأ اللحن الأول على الوتر الأول، وهكذا تدريجيـاً إلـى الوتـر الإضافي، والحال فالمقامات الأصلية الأساسية، كانت اثني عشر لحناً حسب ما جـاء فـي مؤلفات ابن العبري في كتابه (الإيثيقون)، وقد اختصرت إلى ثمانية ألحان. وقد تم تحويـر وتبديل أسماء هذه الألحان من اللغة الآرامية إلى اللغة العربية على الشكل التالي:

المقام الأول Baya هو المقام البياتي باللغة العربية، وكلمة بيات المشتقة من كلمـة (بات) التي تعني نزل ليلاً، أو ادركه الليل، أو دخل مبيته، فهي بهذا المعنى لا تعطي صفة موسيقية فنية، ولكنها محرفة من السريانية (بَيَا) Baya التي تعني (عزى، سلى، سـرور، فرّج الهم.. إلخ) إن هذا المعنى يعطيها صفة موسيقية واضحة.

المقام الثاني Hawsono وهو باللغة العربية المقام (الحسيني)، كذلك فإن هذه الكلمـة المشتقة من الحس والني تعني الجمال، لا تعطي ذات الدلالة الموسيقية كما هي السـريانية حيث تعني (الترفق ـ الرأفة ـ الحنان، الرحمة، العطف ، الشفقة) ولهذا المعنـى دلالات تنسجم مع هذا المقام.

المقام الثالث Ur-ak وقد جاء اسمه من اسم مدينة مغمـورة ـ الآن ـ فـي بـلاد الرافدين، ومنها جاءت كلمة (العراق) كما تلفظ اليوم، أما العامـة فـي الموصـل فإنـهم يلفظونها كما في السومرية (عُراق)، وقد كانت هذه المدينة عاصمة الدولة فـي العـهدين السومري والآكادي، ولاتزال أطلالها باقية حتى اليوم.

المقام الرابع Razd وهو بالعربية (الرصد) وقد حوّر من قبل الأتـراك نقـلاً عـن الفارسية إلى كلمة (راست) وتعني المستقيم وليس لهذا المعنى أي صلة بالمقـام المسـتقيم وهذا لا يعطيه أي صفة أو دلالة موسيقية، أما ترجمته بالآرامية فتعني (ادرج، قدر، ثبـت، مكن، أصلح) مما يظهر الدلالة الموسيقية المميزة له.

المقام الخامس Ugo (أوجو) ويسمى بالعربية أوج أي الأعلى، أما معناه بالتركية فهو الرأس الحاد، وفي كلتا الحالتين لم يعط هذا المعنى الدلالة الموسيقية لهذا المقام. أما معنـــاه في السريانية (الزهور، الريحان، الميس، وهذه الكلمة، تفسر بالخمرة وهي في الســـريانية تدل على نباتات عطرية ذات رائحة زكية)، وهو بهذا المعنى يعطي دلالة موسيقية أوضـــح وأكثر انسجاماً مع نوعية موسيقى اللحن أو المقام.

المقام السادس Agam ويلفظ بالعربية **(عجم)** ويعني الغريب، الغشيم، وقـــد طغـــى معناه التركي حتى في اللغة العربية حيث يعني بلاد فارس، وهذا المعنى لا ارتباط له مـــع الموسيقى، أما في اللغة الآرامية القديمة فمعناه (رجوع، هبوط، تفريغ..إلخ) فإذا عرفنا أنـــه موسيقياً يبتدئ من مركزه الأعلى ثم يتفرغ رويداً إلى قراره لتوضح لنا معنـــاه الآرامـــي موسيقياً وبان سبب تسميته الآرامية بهذا الاسم.

المقام السابع Sba إن كلمة (صَبا) باللغة العربية تعني النسيم الشمالي الرقيق، وقـــد يكون لهذا المعنى ارتباط موسيقي لكنه ضعيف، بينما ترجمته السريانية التي تعني (فـــرح، سرور، أراد، شاء، صفاء)، تظهر ارتباطه بالموسيقى أكثر. وهذا المقـــام مفضـــل عنـــد السريان خصوصاً في مراسيم موت الشهداء الأبرار والكهنة لكونه لحناً حزيناً ذا خاصيـــة مميزة.

المقام الثامن حاجو (حجاز) وهذا هو اسم بلاد السعودية القديم حيث كـــانت تعـــرف باسم (حج) Haj وقد أضيف حرف الزاي إلى الكلمة خلال الحكم العثماني الطويل فســـميت حجاز... وكانت مكة المكرمة قبلة الشعوب والقبائل المجاور لها حيث كانوا يحجون إلـــى كعبتها، وقد انتقلت هذه المظاهر إلى العهد الإسلامي حيث أكد الدين الجديد على قدســـية الكعبة الشريفة فأصبحت مكة المكرمة من الأماكن المقدسة يحج إليها المسلمون من كافـــة أنحاء المعمورة. وقد كان لبلاد الحجاز ارتباط ثقافي واقتصادي مع بلاد الآراميـــين عـــبر دمشق، ويمكن القول إن هذا اللحن قد انتقل من بلاد الآراميين إلى الحجاز، وقـــد أعجـــب المسلمون بالمقام الثامن فجعلوا الآذان معتمداً عليه، وفي مصر فإنهم استبدلوا الآذان بالمقام الرابع وهو الراست.[١]

---

[١] جبران أسعد: الموسيقى السورية عبر التاريخ، حلب ١٩٩٠ دون ذكر اسم الناشر ص٢١.

هذه المقامات التي تمثل عماد الألحان السريانية السورية أخذت عنها معظم الألحان العربية، ولكن اللحن الكنائسي يبقى هو الأساس، والأساس هنا بحاجة للشعر الذي يستقيم مع اللحن وهو باب التأمل في المعنى الباطني للحياة الإنسانية والصلة بين العالم الطبيعي والروحي، إذ هي مجرد شذرة منه، وما يدعو إلى إيراد فنون الشعر عند السريان، هو إغراء القارئ بإكمال الدراسة الموسيقية السورية، محاولين الربط بين حقائق تاريخ الموسيقى، وتاريخ الروح الإنسانية، والحضارة السورية في مظاهرها المختلفة، إذ أن لذلك أثراً بالغاً على شخصية هذه البلاد.

وهناك عشرة مقامات للشعر عرفت في الكنيسة السريانية هي التي أبقت هذه الألحان إلى الآن وهي:

الميامر والموشحات: فهي القصائد المتساوية بالدعائم والعناصر، ومن أشهر مؤلفيها مار افرام، ومار يعقوب السروجي وغيرهما.

الموشحات: وتتألف من دعائم قصيرة، أما أبياتها فطويلة، وجاءت على الأغلب بشكل حوار ولهذا دعيت بالموشحات، وأول من صنفها برديصان وأسو ومار أفرام، ومار اسحق ومار بالاي.

السبل، السلالم: أطول من أبيات الموشحات وهي تتألف من دعائم متغايرة، وعناصر مختلفة، وأشهر واضعيها مار يعقوب السروجي والرهاوي وغيرهما.

الابتهالات: وهي متغايرة الدعائم والعناصر عامة، وكثيراً ما تأتي في كلام التنهدات فتصوغ الابتهالات، وأول من وضعها مار ابولا الرهاوي (٤٣٥م).

الحجب: وقيل إنها سميت بالحجب لأنها ترتل من وراء الستار، أما مؤلفها فغير معروف.

القوانين اليونانية والسريانية: وهي تسابيح تنشد في صلاة الصباح على غرار تسابيح موسى والأنبياء الآخرين، وعلى التعظيم والطوبى في الإنجيل.

ونقلاً عن المؤرخ الشهير مار غريغوريوس ابن العبري أن واضعها أديب دمشقي اسمه قوريني بن منصور في القرن السابع الميلادي، ولما كان قوريني من المجمعيين حيث نشبت الخصومات التي أحدثت الانشقاق لم يأت على ذكرها في قوانينه، لذا بدأت قوانينه تدخل الكنائس بالمشرق والمغرب.

أما القوانين السريانية فهي تتألف من المزامير ... ارحمني يا الله... وإلهي آلهي انتظرتك، وسبحوا الرب تسبحة جديدة لأشعيا.

القوقليونات: وهي ألطف نغماً من القوانين، وهي آيات من المزامير تتخللها لفظة (هليلويا).

القصائد والردات: ومنها ما كانت متساوية الدعائم، ومنها مختلفة كما قال ابن العبري، ففي عصر المجمع الافسسي كان القوقيون قد غالوا في مخافة الله وأفاضوا بالروح، وأثمروا الردات الكثيرة.

الأغاني: هي مقاطع غنائية بني عليها أفكار صائبة، وأول من وضعها باليونانية هو مار سويردوس الكبير بطريرك أنطاكية ثم نقلها إلى السريانية ماربولس الرهاوي، وهو في جزيرة قبرص، ووضع مثلها في ذلك العصر باللغة السريانية، مار يوحنا ابن افتونيا رئيس دير قنسرين وغيره.

الجلسات: وهي ترانيم ترتل في الاحتفالات بنغمة طويلة.

وتبقى **الدورات**: وهي ترانيم ترتلها كنائس المشرق عوضاً عن القوانين اليونانية والسريانية التي تستعملها الكنائس الغربية[١].

اللحن مع الشعر يجسدا عبق الماضي ويوقظا بنا أحلام اليقظة، وفي علم اجتماع الفردوس نرى أن بعض الأساطير تتردد أحياناً، كما هي الحال في مصر أو لدى الآزتك، بين تمثال الشمس في الذهن وبين رسمها السماوي. وفي كثير من الأحيان يصبح الصعود مع الكوكب المنير وقفاً على القديسين والأبطال، وهو يزيد سمة إجلال وتمجيد المصير السماوي وعندما يلج بوجه الدقة على استعارة الصعود. وفي الرسم الكوني للتنظيم النفسي الذي توحي به التجارب التي أجريت على أحلام اليقظة، يقترن الصعود إلى السماء في اللا شعور بالاستيلاء على (مافوق الأنا) أو، إذا استعرنا لغة بعض علماء التحليل النفسي الآخرين، إنه يقترن بالاستيلا على (الذات) وهي قد تكون لجاجاً مثالاً، حالا قصوى للكائن الروحي الذي يقابل إلى حد كاف ما كان الأب تيارده شاردان يعرّفه على أنه الحد الأعظم لإضفاء الصبغة الإنسانية.

---

[١] المطران يوحنا دولباني: الشعر عند السريان ترجمة عن السريانية الأب برصوم بيوسف أيوب نشر وتوزيع مكتبة حياتي، حلب ١٩٧٠ ص١١٢٣و١١٥و١١٧.

ومهما وصفنا اللحن السرياني السوري، مع فنون الشعر التي جسدته من خلال طقوس الكنيسة فإن من يسمع ذلك سوف يشعر مدى تغلغل الماضي في أعماقه حيث يسمو بالروح الحب الكلي الذي يشعر به الإنسان بصورة غريزية نحو الذات وذلك عندما يحس به نحو إنسان آخر، بل وعندما ينتقل ذلك الشعور إلى هذا الإنسان الآخر.

وخير من سحرته الأناشيد والتراتيل السريانية أديب عربي كبير هو (جبرا إبراهيم جبرا) حيث خدم بالكنيسة ورتل الأناشيد السريانية و((حين أحب وتزوج جبرا إبراهيم جبرا من (لميعة) إحدى جميلات فتيات بغداد وهي مسلمة، أقدم من أجل ذلك على التحول إلى الإسلام وهجر ديانته المسيحية غير عابئ بمشاعر أسرته وبما تربى عليه من طقوس مسيحية ظلت رغم إسلامه تظهر في رؤيته وسلوكياته التي نجدها في رواياته ودراساته النقدية مما يدل على سمة من سمات شخصية وفكر جبرا إبراهيم جبرا، فهو لم يسلم قناعة بالإسلام بل من أجل حب وزواجه))[١].

يصف جبرا من خلال سيرة ذاتية هي من أروع ماكتبه أديب عربي عن طفولته التي علمه بها معلم وحيد في مدرسة السريان الآرثوذكس في القدس هو المعلم جريس[٢] الذي درّسه العربية والسريانية والإنجليزية، وهو شماس كنيسة السريان المتميز بصوته الرخيم (حتى أنه يحوّل القداس صباح كل أحد إلى جنة صغيرة من عذوبة الترتيل)[٣]

ويشرح جبرا ماهية اللغة السريانية التي تعلمها وأين كان ينطقها قائلاً:

اللغة السريانية التي علمنا إياها المعلم جريس، كانت في معظمها أناشيد وتراتيل تعود إلى أزمان سحيقة في القدم، لحنها آباء الكنيسة الأوائل في أنطاكيا ودمشق والقدس والرها ومدن وادي الرافدين، وفق مقامات كان الشماسة يتقنوها وقد لقنا المعلم، يساعده في ذلك الحين رهبان شباب من دير مار مرقس بالقدس، أو من الموصل، التنويعات السبعة لكل لحن أساسي، أي أن النغم الواحد له سبعة ألحان أخرى ينوع بها، حسب أيام الأسبوع، ومواسم الصيام، والأعياد، وكان علينا أن نحفظ ذلك كله سماعاً، بدون التدوين الموسيقي الذي عرفته ألحان الكنائس فيما بعد، وكان المعلم يشرك منا من رخم صوته وحسنت أذنه في إنشاد الألحان في الكنيسة.

---

[١] عبد الرحمن أبو عوف صحيفة الأهالي ـــ القاهرة ١٩٩٧/٣/٢٦ ص١٢.

[٢] جبرا إبراهيم جبرا: البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية دار رياض الريس للكتب والنشر-لندن١٩٨٧ص٤٦.

[٣] جبرا إبراهيم جبرا: البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية مرجع سابق ص٤٩.

وفيها يقام، على القاعدة الأمامية من الهيكل محملان الواحد إلى اليمين والآخر إلى اليسار، وعلى كل منهما مخطوطة ضخمة، لا يتذكر أحد متى خطت لقدمها. كانت هذه الكتب السريانية القديمة كنزاً تحتفظ به الكنيسة بعناية خاصة واعتزاز كبير. أوراقها سميكة جداً، وبعضها من رق الغزال، ولا ترفع إلا بشيء من الجهد العضلي لثقلها وحجمها وخطوطها بالحبر الأسود بالنسبة للمتن، وبالحبر الأحمر بالنسبة للإرشادات والعناوين التي تتخللها، ولو ضاع كتاب منها لاستحال التعويض عنه لندرة الخطاطين بالسريانية في عهود متعاقبة من الأمية المتزايدة.

يقسم الكورس إلى نصفين، وكل نصف يلتف حول محمل، لتكون التلاوة المرتلة بالتناوب بينهما. ولشدة ظلام الكنيسة (لم تكن بعد زودت بالكهرباء) كان أحد المرتلين يمسك شمعة يضيء بها النص الذي ينغمه نصف الكورس. والمرتلون يتحلقون حول المحمل وبالتالي تكون الكتابة بالنسبة لبعضهم، المقابلين لهم، مقلوبة تماماً. ولذا كان علينا أن نستطيع القراءة بالمقلوب، إذا اقتضى الأمر، وبأقل ما يتيسر لنا من ضوء. وكثيراً ما وجدتني أرفع من الأخرين ـ لأنني في الأغلب أصغر أفراد الكورس ـ لآخذ مكاني حول المحمل حيث يتوجب علي أن اقرأ بالمقلوب!

وكان أنني تعلمت أن أقرأ أي نص بالسريانية أو العربية، عَدلاً، أو بالمقلوب، ولا فرق! ولكن، لا فخر. فرافقني المرتلون كلهم تعلموا أن يفعلوا ذلك أيضاً. والقليل النادر منا من كان يفهم تلك النصوص، أو حتى بعضها، لقد كنا في الواقع نصلي بلغة مغلقة في معظمها دوننا، رغم قدرتنا على قراءتها عَدلاً، جانبياً، أو بالمقلوب، في الضوء أو العتمة.[1]

إن ما صوره جبرا إبراهيم جبرا للألحان السريانية، وكيف تتلى مما لا يمكن أن ينساه من رأى هذا المنظر وسمع هذه الألحان، ولعل هذه الذكريات كانت تلاحق هذا الأديب في كل مناسبة يستمع بها إلى قطعة موسيقية، وهاهو في رواية أخرى، وكان على ظهر سفينة ومكبرات الصوت تبث الأنغام، يصف مشاعره قائلاً: ((للميلاد الجديد، كالقيامة بعد الموت، معانٍ تشدنا لهذا الليل الماطر المقرور، لهذه الأناشيد الكورسية القديمة، معلنة ديمومة المدنية عبر الحقب الطوال، لعل في باطن الصخر ناراً ترفض أن تخمد، كما في البعض منا. فهنالك نار قد تهبط على الواحد منا منذ الصغر، فلا تتحرك آثاراً كجروح المسيح في

---

[1] جبرا إبراهيم جبرا: البئر الأولى... فصول من سيرة ذاتية مرجع سابق ص٥٥و٥٦.

اليدين والقدمين، ولكنها تحط في القلب لتبقى مضطربة فيه إلى الأبد، كما في باطن الصخر))[١].

ويعتبر الدين من المصادر الرئيسة للإحساس الفني والابتكار، كما أن الفن وسيلة أساسية من وسائل التعبير عن التفكير الديني، وفي جميع أرجاء العالم، من معابد الصين إلى تماثيل المكسيك، ابتدع الفنانون أكثر الإنتاج الفني قوة وجمالاً تبجيلاً للآلهة، ومن المحقق أننا لن نستطيع أن نفهم أي دين، في قوته أو ضعفه، بغير أن نقدر الفن الذي أوحى به لعبادته، فإن التراتيل والعظات القوية البسيطة التي تمتاز بها الكنيسة السريانية، والمذابح ذات الزخارف الضخمة التي تمتاز بها كنائس الرومان الكاثوليك والصور المصنوعة من الفسيفساء بكنائس الروم الأرثوذكس ــ هذا على الأقل بالنسبة للديانة المسيحية ــ كل هذه الاتجاهات تعبر عن ثلاث وسائل مشروعة للدنو من المسيحية[٢].

وإذا كان مؤرخو الغرب يرون أن ما يسمى بتاريخ الموسيقى يبدأ بموسيقى الكنيسة المسيحية في أواخر العصر الوسيط لأن معرفتنا بموسيقى العصر القديم في مصر وفلسطين وفارس واليونان متناثرة، ولذا لا يمكن وصفها بأنها تاريخية (فمما لاشك فيه أن الموسيقى، إذا قورنت بفن العمارة والنحت والشعر، قد كانت ذات مكانة ثانوية، وشاركها التصوير في هذه المرتبة. وربما فسر هذا السبب، السر في عدم عناية العصور التالية بالمحافظة على الموسيقى مثل عنايتها بالشعر)[٣].

ومن هنا قد تكون الكنيسة السريانية التي ركزت على اللحن والشعر في أداء طقوسها من أقدم ما بقي للعصر الحالي من تراث جعل اللحن والشعر من أعمدة الصلوات بها وبالتالي أبقى اللحن الكنسي أرث الألحان السريانية السورية.

---

(١) جبرا إبراهيم جبرا: السفينة رواية دار الآداب ــ بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ص٤٩.

(٢) سيريل بيرت: علم النفس الديني ترجمة سمير عبده دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٥ ص٨٠ والنص المورد للمترجم كحاشية في سياق النص.

(٣) هوجو لايختنتريت: الموسيقى والحضارة ترجمة أحمد حمدي محمود المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة ١٩٦٤ ص٢٩.

إحياء الثقافة السريانية

لا يعني إحياء الثقافة السريانية إحياء الميت، فهذه الثقافة موجودة بيننا، متزاوجة مع الثقافة والحضارة العربية، زواجاً أبدياً سرمدياً. بيد أن الحديث عن هذه الثقافة هو تذكير بتراث غال نفيس، وأرث روحي خالد، خلفها لنا آباؤنا وأجدادنا في العصور المختلفة الغابرة. تتميز بسعة آفاقها، ورحب أجوائها وخصب حقولها، ونفاسة نتاجها، واستمداد عناصرها ومقوماتها من ثقافات عالمية رفيعة، وسمو مكانتها في تاريخ، الفكر العالمي عامة والشرقي خاصة.

وكانت الثقافة السريانية يوماً لغة أمة عظيمة ساكنة في قسم كبير من أرض آسيا... أي بلاد الشام مع جزائرها والجزيرة والعراق وآثور وما يجاور هذه البلاد إلى حدود بلاد الفرس شرقاً وبلاد الأرمن وبلاد اليونانيين في آسيا الصغرى شمالاً وحدود بلاد العرب جنوباً. وكانت هذه البلاد كلها يقال لها عند اليهود آرام لأن آرام بن سام هو الذي بناها وعمرها بنسله.

وكذا ورد اسمها في العهد القديم المكتوب في العبرانية (٢ملوك١٨: ٢٦ وأشعيا ٢٦: ١١ ودانيال ٢: ٤ وعزرا ٤: ٧).

وقد بلغت الحياة الفكرية السريانية في عصورها الذهبية شأواً كبيراً من النضوج والازدهار في مختلف فروع العلم والعرفان وقتئذ، من دين وأدب وفلسفة ورياضيات وطبيعيات وطب، تتخللها ألوان من التفكير الفلسفي المبتكر الرفيع، وصور من الأدب القيّم البديع، ونماذج للعلوم الدينية منقطعة النظير تشهد لها بذلك المؤلفات الكثيرة القيمة. ويرجع ذلك كله إلى احتكاك السريان بالشعوب المختلفة المذاهب والقوميات كالفرس والهنود واليونان والعرب وتأثرهم بآدابها وعلومها.

وعلى سبيل المثال هناك قصيدة الفردوس المفقود، تلك الملحمة الخالدة للشاعر الإنكليزي الضرير ملتون التي وضعت سنة ١٦٧٢ ليست إلا صدى لقصيدة سريانية وضعها شاعر سرياني يدعى اسحق الأمدي الملفان كان يعيش في القرن الخامس المسيحي.

إن لسورية ثلاث ثقافات لا ينبغي أن تعلو واحدة منها فوق الأخرى، وتلك الثقافات هي الثقافة السورية القديمة الأصيلة، ثم الثقافة السريانية وهي ثقافة سورية مكتوبة بالحروف السريانية ثم الثقافة العربية الإسلامية. وإن تسييد الثقافة العربية وحدها فوق الثقافات الوطنية الأخرى يطعن في صدق مبدأ المواطنة السورية، لأن من يبغي سيادة الثقافة العربية لا يرى في ثقافات سورية السابقة ثقافة له، مما يعني أنه لا يفكر كسوري، بل كمواطن عربي.

حتى أن البيت العربي دخلت فيه عناصر فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية بحيث يبدو البيت وفيه شعوب مختلطة ولكن رب البيت هو العربي[1]. مما جعل الوطنية تبدو في أشمل فضائلها في أرض سوريا الطبيعية.

ويذكر فيليب دي طرازي نقلاً عن سليم البستاني أن نابليون الأول عندما جاء في أواخر القرن الثامن عشر يقود حملته المشهورة إلى وادي النيل كان يذيع أوامره وإعلاناته في البلاد المذكورة مطبوعة باللغات الفرنسية والعربية والسريانية[2] ويرى د. جواد علي أن السريانية هي أصل اللغات وهي لسان آدم ولسان سام بن نوح[3].

إن الشهادات التي أوردناها هي غيض من فيض في شأن الثقافة السريانية وتأثيرها على سورية وعلى أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى وعلى الثقافة العربية، و(العودة إلى التاريخ هي بالنسبة لي ضرورة منهجية أساسية في درس الوضعيات، حتى الآنية منها، للنظر إليها من ضمن إطارها التاريخي. وهذه القاعدة تنطبق على كل المجتمعات، لكن بشكل خاص على المجتمعات الشرقية، مسيحية كانت أو مسلمة. فهذه المجتمعات قائمة، على عكس المجتمعات الأوربية، على نوع من التطابق المستمر. هناك عودة دائمة إلى البنى الأولى. وبالإمكان القول أن هذه المجتمعات تبحث باستمرار عن أخذ مستقبلها، من ذكرياتها. ولنأخذ مثالاً على ذلك فكرة العروبة، أو الوحدة العربية، فمن أين يمكن استخراج فكرة الوحدة العربية إلا من ذكرى الوحدة العربية التي تعود إلى حقبة الأمويين؟ وما ينطبق على هذا المثال ينطبق على سواه، وأن احتكاكي بهذه المجتمعات هو الذي أوحى إلي بهذه النظرة التي ليس بإمكاني التخلي عنها)[4].

---

[1] أحمد أمين: فجر الإسلام دار الكتاب العربي ــ بيروت الطبعة العاشرة ١٩٦٩ ص٩١.

[2] فيليب دي طرازي: السلال التاريخية-بيروت ١٩١٠ص٣٨١ نقلاً عن (تاريخ فرنسا الحديث) سليم البستاني ص١٥٢.

[3] د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٨ ص٢٥٦.

[4] من مقابلة مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك أجرتها معه صحيفة (النهار العربي والدولي) باريز العدد ١٤٦ تاريخ ١٨/٢/١٩٨٠ ص١٨.

يتم التغير التاريخي عندما تتجدد الظروف والأوضاع كما هو متوقع من لحظة إلى أخرى تليها، ولكن عملية التجدد هذه لا تكتمل تماماً وإنما تتعرض للتعديل. ويمكن تمييز النمط العام للتجدد، ولكنه يبدو لنا مشوهاً فنقول عندئذ أن النمط قد تغير. وفي التاريخ يحدث تداخل يحول دون تكرار أي نمط تكراراً أميناً، ويرجع ذلك في الغالب إلى عوامل لا سيطرة للإنسان عليها. ويختلف الحال بالنسبة للغة حيث يجب أن يضبط التداخل لنضمن استمرار اللغة كوسيلة للإتصال، فالتشويش هو تغير غير منتظم وغير متوقع. وإذا كان على اللغة أن تحتفظ بقدرتها التأثيرية، يتوجب على المتكلمين بها أن يحصروا عناصر التداخل أو التشويش ضمن أضيق نطاق ممكن، ويمكن تحقيق ذلك عن طريق تحويل اللا انتظامية إلى نبضات منتظمة ترافق عملية الاتصال وتشبه طنيناً من صوت ثابت الارتفاع والنغم، وتكون سرعة التغير في اللغة منتظمة لا لسبب إلا لأن الاتصال ينقطع إذا كانت وسيلته ستتيه في شعاب مختلفة على غير هدى.

والتطورات الحديثة في نظريات اللغة التاريخية تدعونا إلى إعادة النظر في وضع المنتجات الفنية بوصفها بينات تاريخية. فمعظم الوقائع التاريخية هي من النوع الذي يتعرض لتداخلات لا حصر لها، وهذه التداخلات تحرم التاريخ من الإمكانات المهيئة للعلوم التي يسهل فيه التنبؤ بالظواهر المستقبلة. أما التراكيب اللغوية فلا تفسح مجالاً إلا لتلك التداخلات التي لا يعود انتظامها بالضرر على سبل الاتصال، وأما تاريخ الأشياء فيفسح مجالاً لتداخلات أكثر من اللغة ولكنها أقل من التي نجدها في تاريخ المؤسسات الاجتماعية، والسبب في ذلك أنه يفترض في الأشياء أن تؤدي وظائف معينة وأن تنقل رسائل معينة، ولذا لا يمكن أن تنحرف عن هذه الأهداف من دون أن تفقد هويتها[1].

وتعتمد الساعة الثقافية بالدرجة الأولى على المخلفات المادية من شظايا الأشياء التي اكتشفت وسط أكداس النفايات وفي المقابر والمدن المهجورة والقرى المطمورة، فالمخلفات الفنية ذات الطابع المادي تكاد تكون هي الوحيدة التي عمرت حتى يومنا هذا، وتنفرد دول منطقة البحر الأبيض المتوسط بالإنتاج الخاص بالموسيقى والحديث والطقوس الدينية وجميع الفنون الأخرى التي يرتبط التعبير عنها بمدة زمنية.

---

[1] جورج كوبلر: نشأة الفنون الإنسانية ترجمة عبد الملك الناشف المؤسسة الوطنية للطباعة ـ بيروت ١٩٦٥ ص١١٥.

إن الإحياء مع التغير التاريخي يجعل للحياة الإنسانية سننها وقوانينها، حيث نلاحظ ترابطاً بين مؤسساتها المختلفة، ونوعاً من الانتظام في المراحل التي تتبعها هذه المؤسسات في تطورها وتفاعلها. لا ينكر مثلاً ما للأوضاع الاقتصادية في عصر من العصور، من أثر في وجوه الحياة الأخرى، أو أن هذه الأوضاع قد اتبعت في تطورها اتجاهاً يمكن تصويره بشكل عام. ولكننا لسنا من الذين يقولون بأن هذه السنن والقوانين لها ما للسنن والقوانين الطبيعية من انتظام وتماسك، وبأنها تجيز لنا التنبؤ بالأحداث المقبلة كما تجيز هذه، لأننا نعتقد، أن التاريخ من صنع الإنسان فرداً أو جماعة، وأن الأوضاع القائمة تحد هذا الصنع، وتقيم القيود والسدود في وجهه، ولكنها لا تملك أن تمنعه منعاً تاماً، أو أن تمنعه في أحيان كثيرة عن تجاوز الحدود والقيود، والاختيار بين ما ينفتح أمامه من إمكانات بالرغم منها.

وعلى هذا يذهب قسطنطين زريق إلى أن التفكير التأريخي الصحيح، ليس في عرفنا، تحتيمياً جازماً، وإنما هو يسعى إلى إدراك التغيرات والتقلبات على حقيقتها، وإلى استخراج أصولها وعواملها القريبة والبعيدة كما تبدو له بالاستنطاق التأريخي والنظر العقلي. ولما كان يرى من خلال هذه التقلبات والتغيرات أن للإنسان اختياراً وفعلاً وأنه ليس مسيراً كل التسيير، فإن هذا الإدراك ينتهي به إلى نوع من اليقظة والقلق،ويبعث هذا القلق في نفس صاحبه شعوراً حاداً بالمسؤولية يتجلى في كل ما يقدم عليه من فكر وعمل، وبهذا كله يرتفع إلى مرتبة التفكير الواعي الفاعل المبدع.[١]

ماهية الثقافة السريانية

من المعلوم أن أقدم مراكز الحضارة والثقافة تقع في أحواض الأنهار الصالحة للملاحة كالفرات ودجلة والنيل ونحوها، وقد نشأت هذه المراكز مستقلة في أثر الاهتداء إلى الفلاحة المنظمة في الأودية الكبيرة، حيث يسهل تبادل السلع والأفكار بين الناس. ثم تأثر بعضها ببعض، غير أنه لا يمكن الوقوف على مدى تأثر ثقافة بأخرى في هذه المراكز الحضارية، أو تحديد قدر هذا التأثر، ولكن الغريب في ثقافات الشعوب خلال العصور التاريخية أنها لا تثبت على حال، فبينما نرى الثقافة في شعب ما تتقدم في إطراد عدة أجيال، قد نراها تعود القهقرى وتنتكس، دون توقع لمثل هذا الانتكاس أو تفسير واضح بيّن.

---

[١] قسطنطين زريق: نحن والتاريخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٩٣ الطبعة الثانية ص١٢٣.

ولنا أن نتساءل عن أوضح مقياس للثقافة في العالم هل هو عن طريق الدراسة الدقيقة للفن والأدب والقانون في شعب من الشعوب؟ أو هل الثقافة تعتمد أولاً وبالذات على المستوى العام للتعليم في هذا الشعب؟ إنها في الحقيقة تستمد جذورها، وإلى حد كبير، من كل ما تقدم، ولكنها مع هذا تفكر بوضوح درجة التحرر وسعة الأفق والسماحة بين الناس في حياتهم العامة، كما تعكس مدى رغبتهم في السماح لغيرهم بحرية الرأي. فإذا نظرنا في بيئة من البيئات وشهدنا السماحة وسعة الأفق تسود بين الناس تبين لنا بجلاء أن مستوى الثقافة في هذا المجتمع مستوى راق وعلى درجة سامية، وعلى العكس من ذلك إذا شهدنا أن هذه الصفات آخذة في الانحطاط والانتكاس فليس يعوضنا عن فقد الثقافة في هذا المجتمع أو يغني عنا ما قد نراه فيه من مظاهر براقة في الفن والعمارة الشامخة أو النظم المحكمة في التعليم والإدارة، ذلك لأن الشعارين الأصيلين للثقافة هما: السماحة والتحرر.

وحين تعني الثقافة الطريق الموروث للحياة في شعب من الشعوب، نرى الثقافة السريانية كان لها جانب مشع من حضارة الشرق، ومقياس ثابت لأبعاد النشاط الفكري لدى السريان، ومؤشر واضح لدور الأمة الآرامية السريانية في دفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى الأمام، فقد اشتغل السريان في العلوم اللاهوتية والموسيقية والفلسفية والطبية واللغوية والتاريخية والفلكية، وأسسوا عدداً وافراً من معاهد العلم الشهيرة كان لها أثر بالغ في تاريخ ثقافة المنطقة.

لقد أنجبت هذه الكنيسة في مدارسها جيشاً عرمرماً من جهابذة العلماء، طبقت شهرتهم الخافقين، حتى اتخذ العرب الفاتحون كثيرين منهم أساتذة استعانوا بهم في نقل كثير من التآليف اليونانية إلى العربية، وكانت في كل فن ومطلب، فضلاً عما كانوا قد وضعوه هم بالسريانية مصنفات حسان، وأضحت ترجماتهم ومصنفاتهم منهلاً عذباً لعلماء العرب وفلاسفتهم في الأجيال اللاحقة، وبواسطة هؤلاء للعالم الغربي. فنظرة خاطفة إلى رسائل الكندي الفلسفية مثلاً تكفي لمعرفة ما اقتبسه أول فلاسفة العرب من هذه المصنفات، منها مصطلحاته (ايس ، ليس، هويه، قنية، وكثماة).

وتبنى العرب كذلك كثيراً من الألحان والبحور الشعرية السريانية، التي كان قد استنبطها خاصة برديصان الرهاوي، ومار أفرام السرياني، ومار بالاي ومار يعقوب السروجي، وأنك لتجد عند نوابغ السريان بعض النظريات التي هلل لها الغربيون حين قال بها علماؤهم، منها نظرية هردر (الإنسان عالم صغير)، فقد عالجها مار أحودامه الجاثليق

والشهيد السرياني الشهير في القرن السادس في كتابه (الإنسان عالم صغير)، ونظرية غـــاليليو الفلكي، فقد عالجها الأسقف الرهاوي السرياني في القرن العاشر، في كتابه (علة كل العلل).

ولا يفوتنا أن نذكر أشهر المدارس السريانية، مدرسة الرها، وكانت محجة طلاب اللغة السريانية الفصحى، علم فيها مار أفرام، وعاشت ١٢٦ سنة، أغلقت أبوابـــها عـــام ٤٨٩، ومدرسة نصيبين وعاشت أكثر من ٢٥٠ سنة، ومدرسة قنسرين علــــى شـــاطئ الفـــرات وعاشت نحواً من ٣٥٠ سنة، من ٥٣٠ــ ٩١٥. كما كان مشاهير علمـــاء الســـريان مـــن الأكليروس والعلمانيين: برديصان الرهاوي ٢٢٢، افراهاط ٣٤٦، مار أفـــرام الســـرياني ٣٧٣، ماروثا الميافرقيني ٤٣١، رابولا الرهاوي ٤٣٥، فيلكسينوس المنبجي ٥٢٣، مـــار بالاي ٥٥٠، مار احودامه ٥٧٥ ، سويريوس الأنطـــاكي ٥٣٨، زكريـــا الفصيـــح، تومـــا الحرقلي ٦٢٧، ساويرا سابوخت ٦٦٧، يعقوب الرهاوي ٧٠٨، أنطـــون التكريتـــي ٨٥٠، ديونيسيوس التلمحري ٨٤٥، أيوانيس الداري ٨٦٠، مار موسى بن كيفا ٩٠٣، يعقوب ابـــن الصليبي ١١٧١، يعقوب البرطلي ١٢٤١، ميخائيل الكبير ١١٩٩، ابـــن العـــبري ١٢٨٦، وبهنام الحدلي ١٤٥٤، أفرام الأول برصوم الموصللي ١٩٥٧.

إضافة إلى هؤلاء فقد خدم السريان فنون العلوم والمعارف البشرية، وقد بلغ عددهـــم الأربعمائة، ولم يوقف مساعيهم الثقافية الجميلة إلا الحروب والآفات الكثيرة التـــي انتـــابت بلادهم كما هو معلوم وذلك في العصور المتأخرة. على أنهم لم يعدموا رجالاً نسجوا علـــى منوال السلف الصالح وضربوا على قالبهم، أشهرهم البطريرك اسطيفان الدويهي المـــاروني ١٧٠٤، والمؤرخ والكاتب العلامة المطران يوسف سمعان السمعاني، الرجل العظيم الـــذي نبغ وضارع علماء العصر الذهبي بعلومه ومعارفه فخـــر الطائفـــة الســـريانية المارونيـــة صاحب المصنفات الحسان، ولا سيما المكتبة الشرقية الضخمـــة التـــي اغـــترف العلمـــاء المستشرقون والشرقيون من بحرها، والعلامـــة بطـــرس البســـتاني المـــاروني الأصـــل البروتستانتي المذهب أحد أركان النهضة العربية مؤلف محيط المحيط ودائـــرة المعـــارف المشهورة (١٨٨٣) والمطران يوسف الدبس الماروني صاحب تـــاريخ ســـورية (١٩٠٧) والشيخ سعيد الشرتوني الماروني صاحب قاموس أقرب الموارد ويعقوب القطريلي اللغـــوي السرياني مؤلف زهرة المعارف (١٧٨١) والمطران يوسف داود السرياني الكاثوليكي العالم الشهير الذي قبض على ناصية اللغة والأدب وترجم الكتاب المقدس (١٨٩٠) والمطـــــران توما ادو الكلداني الكاثوليكي صاحب قاموس الكبير (١٩١٨).

تلك ملامح عن الثقافة السريانية ورجالها دون الدخول في التفاصيل التي استعرضناها من خلال فصول هذا الكتاب.

بعث الثقافة السريانية

حتى نصل إلى إحياء الثقافة السريانية بعد الضربات التي تتالت عليها منذ ألف ومئتي عام وإلى الآن،وعدم اهتمام أي جهة رسمية، لا ببعثها بل بذكرها، سوى في العراق، حيث لها اعتبارها[1] أو في لبنان حيث ازداد في السنوات القليلة الماضية اهتمام الأفراد الذين ينتمون إلى الطوائف السريانية الأصل وهي ثلاث مجموعات: الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، الكنائس السريانية الكاثوليكية وتضم الموارنة والكلدان والسريان الكاثوليك، الكنيسة الآشورية الشرقية بالبحث عن ما يجمعهم من لغة وتاريخ مشترك[2]، مستبعدين الخلافات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية واللاهوتية والحضارية وتدخل السياسة والسياسيين وأسسوا عام ١٩٩٤ (مركز الدراسات والأبحاث الرعوية)، كما أن هناك في بيروت (الرابطة السريانية).

ومن المؤسف أن يكون أبناء ملة واحدة ممن يتابعون الجذور السريانية لهذه البلاد، مع أن الهوية الوطنية تتسع للكل دون الوقوف على المذهب، فالدين لله والوطن للجميع.

إن إدراكنا الحسي للأشياء يشبه دائرة محددة الاستيعاب، فنحن لا نستطيع أن نستوعب تشكيلة كبيرة من الإحساسات في الوقت الواحد، فالإدراك الحسي البشري يتفق، أكثر ما يتفق، مع التعديلات البطيئة في السلوك الرتيب، ولذلك كان على (الأفكار البناءة) أن تقف دائماً عند بوابة الإدراك الحسي حيث يضيق الممر فلا يسمح بالعبور، إلا لعدد محدود من الأشياء يقل كثيراً عما تتطلبه أهمية الرسائل الواردة أو حاجة المستقبلين لها.

وحتى نستطيع أن نزيد حركة المرور إلى داخل بوابة الثقافة السريانية هناك بعض وجهات النظر نعرضها كما يلي:

نبذ الانقسامات والعودة إلى الأشكال الأولية التي نتخيلها عن الموارد والمشاعر والأفكار في ثقافة هذه المنطقة.

---

(1) صحيفة المشرق الأوسط ـ لندن ١٩٩٧/١٠/٢٠ ص٢٠.

(2) صحيفة السفير ـ بيروت دنيز حداد ١٩٩٧/٤/٣ ص٩.

توسيع وسائل الإدراك الحسي بصورة متكررة عن طريق المعارض والمحاضرات والمؤتمرات والكتب التي تخص هذه الثقافة.

فرض تعليم اللغة السريانية[1] على من يدرس في الجامعات اللغة العربية وتيسير ذلك على الآخرين.

ومتى أمعنا النظر في الثقافة السريانية بحثاً عن الشكل الذي كان عليه الماضي، يتبين لنا أن كل ما نكتشفه عنها جدير بأن يستثير اهتمامنا، وعلى الرغم من أن هذه النتيجة تتضح لنا بسهولة حالما ندرك أن الأشياء هي وحدها التي تمكننا من معرفة الماضي، إلا أنها في العادة تهمل بسبب انصراف الباحثين إلى الاهتمام بدراساتهم التخصصية. ولذا يجب أن تنصرف مهمة الجيل الحاضر إلى بناء تاريخ ثقافته حتى يستطيع أن يوفى كلاً من المعنى والوجود حقه، تاريخ يعنى بكل من خطة الوجود وتمامه.

ونحن اليوم نعيد النظر في مسألة إحياء الثقافة السريانية، نكتشف تدريجياً يوماً بعد يوم أن ما يعنيه الشيء ليس أكثر أهمية من ماهيته، وأن التعبير والشكل ينطوي كل منهما على تحد مماثل بالنسبة للمؤرخ، وأن اهمال أي من المعنى والماهية، أو الجوهر والوجود، من شأنه أن يشوه فهمنا لكليهما.

لقد درج العلماء، بما أوتوه من حذق ومعارف على تتبع ملفات الموضوع الإنساني خلال آلاف من السنين، وقد بهروا الجميع باكتشافهم أن كل عهد يكسب الموضوع الذي هو قيد البحث ثرواته المميزة وما قد يطرأ فيه من تحول أو تغير. وتتراكم هذه الدراسات حتى تشبه فصولاً من كتاب أسهم فيه مؤلفون كثيرون، تناول كل منهم أحد عناصر التقاليد الإنسانية الموروثة وتناولوا جميعهم فكرة استمرار التراث القديم، (فالاتصال وليس القطع، هو معيار القيمة في نظر طلاب المعنى)[2].

ومثلما يفعل أي شخص عادي عندما يشتري ثوباً جديداً ويخلع الثوب القديم ليحتفظ به في دولاب ثيابه، كذلك الثقافة كانت في كل دور من أدوار حياتها تلبس ثوباً جديداً أو معنىً

---

[1] نجد الرسول محمداً يحث على تعلم السريانية حيث روى محمد بن عمر المدائني في كتابه (القلم والدواة) قول الرسول لزيد بن ثابت: (أتحسن السريانية؟) قال: لا، قال: (تعلمها)، فتعلمها زيد في سبعة عشر يوماً *

* القلقشندي: صبح الأعشى المجلد الأول ص١٦٥ بيروت ١٩٦٨.

[2] جورج كبلر: نشأة الفنون الإنسانية مرجع سابق ص٢٣٢.

جديداً وتخلع ثوبها القديم لتحتفظ به في دولاب التاريخ، ومثلما تحمل الأنثى وتضع مولودها كذلك الثقافة كانت تلد أطفالاً صغاراً، هم استمرار لبقاء النوع والجنس، ومثلما يكوّن أحدنا اسرة حين يتزوج وينجب أطفالاً، كذلك نجد في الثقافة السريانية وفي أية ثقافة غير سريانية، نجد اللغة أسرة وأقارب وقبيلة أو فصيلة نستطيع أن نصل إلى جمعها وإعادة لم شملها لما بينها من صلة رحم لم تنفصم عراها رغم تعاقب السنين عليها.

لقد غدا السريان أقلية ذات ارتباط قوي بالأرض، لا جدال فيه، وهو ارتباط جعل لهم في التاريخ أدواراً تذكر في تأكيد انتماء هذه المنطقة إلى الحضارة الإنسانية.

المراجع

باللغة العربية

ساكا، المطران إسحق: السريان-إيمان وحضارة ج٤ دراسات سريانية-حلب ١٩٨٣.

ابونا، الأب البير: أدب اللغة الآرامية مطبعة ستاركو ــ بيروت ١٩٧٠

أسعد، جبران: الموسيقى السورية عبر التاريخ ــ حلب ١٩٩٠ دون ذكر اسم الناشر.

أمين، أحمد: فجر الإسلام ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت الطبعة العاشرة ١٩٦٩.

أنيس، الدكتور إبراهيم: اللغة بين القومية والعالمية ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

الأشقر، أسد: تاريخ سوريا ــ الجزء الأول الطبعة الأولى ــ بيروت ١٩٧٨.

البستاني، فؤاد أفرام: دائرة معارف البستاني ــ الجزء الرابع عشر ــ بيروت ١٩٨٣.

البستاني، فؤاد أفرام: دائرة معارف البستاني-الجزء الثالث المجلد الأول-بيروت ١٩٨٣.

الثالث، البطريرك أغناطيوس يعقوب: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية، مطابع الكريم الحديثة ــ جونية ١٩٦٩.

الثالث، البطريرك أغناطيوس يعقوب: الكندي والسريانية-مطبعة ألف باء-دمشق ١٩٦٣.

الجابري، د. محمد عابد: إشكالية الفكر المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ١٩٨٩.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتاب مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ١٩٣٨.

الحسين، عبد الله: مذكرات الملك عبد الله مقدمة وإشراف مصطفى خرسا ــ القاهرة.

الداقوقي، إبراهيم: صورة العرب لدى الأتراك ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ١٩٩٦.

الداقوقي، إبراهيم: التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني، ورقة قدمت إلى: الحياة الإجتماعية في الولايات العربية في العهد العثماني ــ جزءان (زغوان، تونس ١٩٨٨) الجزء الأول.

الدبس، يوسف: تاريخ سوريا ــ الجزء الأول ــ المجلد الأول ــ بيروت ١٨٩٣.

الزيات، أحمد حسن: الأدب العربي ــ القاهرة ١٩٢٥.

العلي، صالح أحمد، رئيس المجمع العلمي العراقي: العرب والعلوم الأجنبية في العهود الإسلامية الأولى بغداد ١٩٨٩.

القلقشندي: صبح الأعشى ــ المجلد الأول ــ بيروت ١٩٦٨.

الكلداني، القس يعقوب: دليل الراغبين في لغة الآراميين مطبعة دير الآباء الدومنيكيين- الموصل ١٩٠٠.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب- المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ.

الموصلي، د. داود الجلبي: الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية- مطبعة النجم الكلدانية-الموصل ١٩٣٥.

النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق بن: الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ــ مطبعة الإستقامة ــ القاهرة.

برصوم، البطريرك مارأغناطيوس افرام الأول: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية ــ نشر المجمع العلمي العربي ــ دمشق ١٩٥١.

بهسني، د. عفيف: الشام والحضارة وزارة الثقافة ــ دمشق ١٩٩١.

جبرا، جبرا إبراهيم: البئر الأولى-فصول من سيرة ذاتية-دار رياض الريس للكتب والنشر-لندن ١٩٨٧.

جبرا، جبرا إبراهيم: السفينة رواية دار الآداب ــ بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣.

حتي، د. فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رائق ــ دار الثقافة ــ بيروت ١٩٥٨.

داود، المطران يوسف: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ــ جزءان طبع في دير الآباء الدومنيكيين ــ الموصل ١٨٩٨.

دولباني، المطران يوحنا: الشعر عند السريان ترجمة عن السريانية الأب برصوم يوسف أيوب ــ نشر وتوزيع مكتبة حياتي ١٩٧٠.

زريق، قسطنطين: نحن والتاريخ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٩٣.

زريق قسطنطين: في معركة الحضارة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤.

زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال ــ القاهرة ١٩١١.

سلامة، د. غسان: المجتمع والدولة في المشرق العربي مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت ١٩٨٧.

سعدى، سعد: معجم الشرق الأوسط ــ دار الجيل ــ بيروت ١٩٩٨.

شلحت، القس جرجس: لغة حلب السريانية ــ المطبعة المارونية ــ حلب ١٩٥٨ ــ الطبعة الثانية.

شير، أدى: تاريخ كلدو وآثور ــ طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩١٣.

صابر، محي الدين: التغير الحضاري وتنمية المجتمع-سرس الليان مركز تنمية المجتمع في العالم العربي ١٩٦٢.

صابر، محي الدين ود. لويس كامل مليكة: البدو والبداوة مفاهيم ومناهج-المكتبة العصرية-بيروت ١٩٨٦.

صروف، فؤاد: آفاق لا تحد ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٥٨.

دي طرازي، فيليب: السلاسل التاريخية ـ بيروت ١٩١٠.

عطية، جورج: بلاد الشام في العهد البيزنطي بحث ألقي في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ الشام ـ الجامعة الأردنية ـ عمان ١٩٨٦.

عبده، سمير: السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ـ عمان ١٩٩٣.

عون، حسن: اللغة والنحو: الطبعة الأولى ـ الاسكندرية ١٩٥٢.

علي، د. جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨.

قرقوط، د.ذوقان: الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٥.

معتوق، د. أحمد محمد: الحصيلة اللغوية ـ أهميتها، مصادرها، ووسائل تنميتها ـ سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٢.

مجموعة من المؤلفين: إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب-مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت ١٩٩٧.

محمد، د. محمد عوض: ثقافة الشرق والغرب-المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب-القاهرة ١٩٥٩.

مرمرجي الدومنكي، الأب أ.س: معجميات عربية-سامية،مطبعة المرسلين اللبنانيين-جونية-لبنان ١٩٥٠.

نورو، أبروهوم: أهمية اللغة السريانية وطنياً وحضارياً ـ محاضرة ألقيت في مقر الرابطة السريانية ـ بيروت ١٩٩٨/٤/٢.

نصري، عبد الهادي: شمس آرام شمس العرب ـ حلب ١٩٨٦.

نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس ـ مكتبة المشعل ـ بيروت الطبعة السادسة ١٩٨١.

هافوري، المطران جورج حبيب: السريان الآراميون من أمسهم الغابر إلى يومهم الحاضر ـ مطبعة ألف باء ـ دمشق ١٩٩٩.

كتب مترجمة للعربية

بروكلمان، كارل، الإمبراطورية الإسلامية وإنحلالها ـ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٦.

بيت، سيريل: علم النفس الديني ـ ترجمة سمير عبده ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٥.

كوبلر، جورج: نشأة الفنون الإنسانية-ترجمة عبد المالك الناشف المؤسسة الوطنية للطباعة-بيروت ١٩٦٥.

ميور، رمزي: النتائج السياسية للحرب العظمى-ترجمة محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٦.

موريس، جيمس: الملوك الهاشميون ـ بيروت ١٩٥٩.

نيف، جون: الأسس الثقافية للحضارة الصناعية-ترجمة د. محمود زايد-دار الثقافة-بيروت ١٩٦٢.

هجمان، روي . س: اللغة والحياة الطبيعية البشرية ــ ترجمة د. داود حلمي أحمد السيد ــ جامعة الكويت ــ الكويت ١٩٨٩.

لايختنتريت: الموسيقى والحضارة-ترجمة أحمد حمدي محمود-المؤسسة العامة للتأليف-القاهرة١٩٦٤.

صحف ومجلات

صحيفة الحياة ــ لندن ــ ١٩٩٨/٣/١٩ العدد ١٢٧٩٩.

صحيفة السفير ــ بيروت ــ دنيز حداد ١٩٩٧/٤/٣.

صحيفة الثورة السورية ــ دمشق ١٩٩٧/١٠/٢٦.

صحيفة الأهرام ــ القاهرة ٣ نوفمبر ١٩٩٧.

صحيفة المشرق الأوسط ــ لندن ١٩٩٧/١٠/١٦.

صحيفة المشرق الأوسط ــ لندن ١٩٩٨/١٢/١٨ العدد ٧٣٢٥.

صحيفة المشرق الأوسط ــ لندن ١٩٩٧/١٠/٢٠.

صحيفة الكفاح العربي ــ بيروت ٢٣/ ١٩٩٨/٤.

صحيفة النهار العربي والدولي-باريز العدد١٤٦ ١٩٨٠/٢/١٩ــمقابلة مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك.

صحيفة الأهالي ــ القاهرة ــ عبد الرحمن أبو عوف ــ ١٩٩٧/٣/٢٦.

صحيفة الأهالي ــ القاهرة ــ د. منى أبو سنة ١٩٩٨/١٢/١٦.

صحيفة بيروت تايمس ــ لوس أنجلوس ١٢ ــ ١٩ نيسان ١٩٩٠ ــ تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية الأرثوذكسية.

مجلة المجمع العلمي العربي ــ دمشق ــ مصطفى الشهابي ــ مجلد ١٢ سنة ١٩٣٢.

المجلة البطريركية ــ دمشق ــ السنة الأولى العدد الثالث ١٩٦٢.

المجلة البطريركية ــ دمشق ــ السنة الثالثة ــ العدد الثاني عشر تشرين الأول ١٩٦٣ ــ د. فؤاد أفرام البستاني: الكندي والسريانية

المجلة البطريركية ــ دمشق ــ السنة الثالثة العدد الثلاثون حزيران ١٩٦٥ ــ أحمد شوكت الشطي: السريان وأثرهم في الحضارة العربية الإسلامية.

المجلة البطريركية ــ دمشق ــ السنة الثالثة العدد الثلاثون حزيران ١٩٦٥ ــ الأب يوسف سعيد: ما يخص السريانية والسريانيون.

المجلة البطريركية ــ دمشق ــ السنة السابعة العدد ٦٨ حزيران ١٩٦٩ الأب صليبا شمعون : اللغة السريانية وآدابها وعلاقتها باللغة العربية.

المجلة البطريركية ـ دمشق ـ السنة العدد ٦٩ أيلول ١٩٦٩ ـ المطران غريغوريوس صليبا: اللغة السريانية وآدابها وعلاقتها باللغة العربية.

مجلة المشرق: بيروت ١٩٠٣ الأب هنري لامانس اليسوعي.

مجلة المشرق: بيروت السنة الثامنة والثلاثون١٩٤٠-الخوري إسحق أرملة: القرى السريانية في مدن سورية.

مجلة المستقبل العربي: بيروت ١١٩ ١٩٨٩/١ ـ عوني فرسخ: الأقليات في الوطن العربي: تراكمات الماضي وتحديات الحاضر واحتمالات المستقبل.

مجلة المستقبل العربي: بيروت ٢٢٨ ١٩٩٨/٢ ـ محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية.

مجلة المستقبل العربي: بيروت ٢٢٩ ١٩٩٨/٣ ـ عبد الإله بلقزيز: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة.

مجلة المستقبل العربي: بيروت ٢٣٣ ١٩٩٨/٧ ـ عبد النبي اصطيف: عولمة دراسات المنطقة.

مجلة المستقبل العربي: بيروت ٢٣٤ ٨/ ١٩٩٨ ـ جلال أمين: العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث.

مجلة التراث الشعبي: بغداد السنة الولى ـ العدد السادس ١٩٦٣ ـ حسين علي محفوظ: مجموعة الألفاظ التركية، في اللهجة العراقية.

مجلة التراث الشعبي: بغداد ـ العدد العاشر حزيران ١٩٧٠ ـ لميعة عباس عمارة: رواسب السريانية في العامية العراقية.

مجلة روز اليوسف: القاهرة ١٩٩٧/١/٢٠ ص٣٣.

مجلة لسان المشرق: بيروت ـ العدد العاشر ـ السنة الأولى.

باللغة الإنكليزية

Branislow, Malinoweski: Dynamics of Culture Change, New York, Yale University 1954.

Coatis, Wilson H: Relativism and the use of Hypothesis in history, Journal of Modern history 21-27 March 1949.

Daniel, Glyn E: A hundred Years of archaeology. G Duckworth & Co. London 1950.

Douns, M: Maps and Mapping, in: L. S. Liben, A. H. Patterson and M. Newcomk, ed. Spatial Representation (New York: Academic Press 1981.

Hallowell Sociopsychological Linton (ed) The Senesces of Man in The World Crisis, New York, Columbia University Press 1945.

Issawi, Charles Philip: The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914 (Chicago, 111. University of Chicago Press 1966).

Kingsley, David: Human Society. Macmillan Co. New York 1950.

Kluckholm, Clyde & Henry A. Murray, and David M. Schneider eds: Personality in Nature, Society, and Culture (2nd.ed) Alfred A. Knoph, New York 1952.

Naima Mustafa: Annals of the Turkish Empire from 1599 to 1659 of the Christian era, translated by Charles Faster, John Murray - London 1922

Mostrand, J. J. Van (Roman Spain) in: Tenney Frank, ed, An Economic Survey of Ancient Roman, vol6, (Baltimore mad: John Hopkens, University Press 1930-1940) vol3.

Rycan Paul (sir) The History of the Present State of the Ottoman Empire. Printed by T. N. for Starkey - London 1982.

Stolman: Mental Maps - Resources for Teaching and Learning (Sheffield: Geographical Amociation 1980)

Toynbe, Arnold Joseph: A study of history. Oxford University Press - London 1934.

Walsh, W. H: An Introduction to Philosophy of History. Hutchinson's University Library - London 1951.

الفهرس

مقدمة ٥

تمهيد ١١

سوريا التسمية والحدود ١٧

حدود سورية ٢٢

الهوية السورية ٢٧

الحضارة والثقافة ٢٩

في مفهوم الهوية الثقافية ٣١

سيادة الهوية الثقافية ٣٤

الشخصية والعقلية السورية ٣٦

اللغة السريانية السورية ٤١

اللغة والحضارة ٤٣

سامية ... آرامية ... سريانية ٤٦

تشعبات الآرامية ٤٨

آثار اللغة السريانية ٥٤

قوة اللغة السريانية ٥٥

سريان السريانية ٥٧

السريانية ـ العربية: الجذور والامتداد ٥٩

اللغات تأخذ من بعضها ٦٢

تأثر اللغة العبرية باللغة العربية ٦٥

علاقة السريانية بالعربية ٦٨

بين الحروف والكلمات السريانية ـ العربية ٧٠

بعض الكلمات السريانية المتداولة في حياتنا اليومية ٧٧
الأصول السريانية لأسماء بعض القرى السورية ٨٠
أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة معرة ٨٢
أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة دير........ ٨٢
أسماء بعض القرى السورية التي تبدأ بكلمة تل........ ٨٣
بعض الكلمات السريانية العامية المتداولة في سورية الطبيعية ٨٣
بعض الكلمــات السريــانية المتداولة وبجانبها لفظها باللاتينية ٩٠

الألحان السريانية السورية........ ٩٣
ماهية السلم الموسيقي السوري ٩٤

إحياء الثقافة السريانية ١٠١
الإحياء مع التغير التاريخي........ ١٠٣
ماهية الثقافة السريانية ١٠٤
بعث الثقافة السريانية........ ١٠٧

المراجع........ ١١١

الفهرس........ ١١٧